محاضرات
فى
حضارة أوروبا فى العصور الوسطى
حتى نهاية القرن العاشر الميلادى

إعداد

دكتور / محمد عبد الشافى المغربى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

رئيس قسم التاريخ

قنا ٢٠٢٢/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلية	الآداب بقنا
الفرقة	الثانية
التخصص	التاريخ
عدد الصفحات	١٩٥
إعداد	أ.م.د محمد عبدالشافى

مقدمة :

يـرى بعـض المـؤرخين اتخـاذ سـنة ٤٧٦ م تاريخـاً فاصـلاً بـين العصـور القديمـة والوسطى وسـنة ١٤٥٣م وهـى السـنة التـى وقعت فيهـا القسـطنطينية فـى أيـدى الأتـراك العثمـانيين تاريخـاً فاصـلاً بـين العصـور الوسطى والحديثة . والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع تاريخاً فاصـلاً يؤكـد نهايـة عصـر وبدايـة عصـر آخـر ، لأن الأحـداث التاريخيـة متداخلة بطبيعتها ، وإن كانت هناك خصائص عامة تميز كل فترة ، كفترة الانتقال مثلاً التى انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمـة ، أبرزهـا انحـلال المجتمـع الرومـانى وتأسـيس الممالـك الجرمانيـة والقضاء على الوثنية وظهور الديانة المسيحية ، ثم اتخاذها ديانـة رسمية للإمبراطورية .

ويعتقد عدد كبير من معاصرينا أن العصور الوسطى كانت فترة ركود وعصر جمود وبرودة وسيرة مليئة بحوادث التدهور والانحطاط الذى تغلبت فيه البربرية والدين على النظام والحضارة ، لم يغفل الإنسان خلالها شيئاً ، لم يكتشف شيئاً ، ولم يبدع شئ خلال ألف عام ، ومن الصعب أيضاً تقبل أننا ورثة العصور الوسطى ، فالكثير من الوثائق فقدت وما بين أيدينا يظل صعب التأويل ، ورغم ذلك فالطب – على سبيل المثال وليس الحصر – ليس هو الطب فى روما الإمبراطورية . هناك أطباء عملوا وفكروا وفى الوقت ذاته طوروا معرفتهم ونظرتهم إلى الصحة والمرض .

وأثبتت أحدث البحوث التاريخية أن تلك القرون لم تكن خالية من مدنيـة وسـيطة متوسـطة الشـأن خاصـة بهـا ، لهـا مقوماتهـا وصـفاتها ومميزاتهـا بـالرغم مـن أنهـا لـم تصـل إلـى مسـتوى المدنيـة الرومانيـة فـى التاريخ القديم أو المدنية المرتبطة بالتاريخ الحديث ، فضلاً عن أن وقوع

العصـور الوسـطى بـين حضـارتين مزدهـرتين هـو الـذى جعـل المـؤرخين الحديثين ينظرون إليها تلك النظرة الجامدة .

والملاحظ أيضاً أن حضارة الغرب لأوروبى فى العصور الوسطى لم تصل إلى درجة النضج فى أواخر تلك العصور إلا بعد أن اتصلت بالحضارة الإسلامية ونهلت من ينابيعها .

ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يمل عنوان حضارة أوروبا فى العصور الوسطى إلى طلابى بجامعة جنوب الوادى ، وهو يضم بين دفتيه بعض الموضوعات الخاصة بالحضارة ، اعتمدنا فيه على المؤرخين المحدثين التقاة ، وأرجو أن تعم الفائدة منه .

والله ولى التوفيق

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة من	الصفحة إلى
مقدمة	٦	٧
الباب الأول : القانون البيزنطي	١٠	١٦
الباب الثانى : التعليم والمدارس والجامعات فى أوروبا العصور الوسطى	١٧	٥٠
الباب الثالث : الإقطاع فى أوربا العصور الوسطى	٥١	٧٨
الباب الرابع : المرأة فى أوربا العصور الوسطى	٧٩	٨٩
الباب الخامس : الرهبنة والديرية	٩٠	١٠٨
الباب السادس : السفراء فى أوربا العصور الوسطى	١٠٩	١١١

الباب السابع : الطب فى أوربا العصور الوسطى	١١٢	١٢١
الباب الثامن: حضارة الخزر	١٢٢	١٦٧
الباب التاسع: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية فى شرق أوروبا العصور الوسطى	١٦٨	١٩٢
الباب العاشر: أفكار ختامية	١٩٤	١٩٧

الباب الأول
القانون البيزنطى

تمت صياغة القانون الرومانى تحت حكم حستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥) وعرف بمجموعة المدنيات وهو أساس للتطور التالى للتشريع الرومانى . وهو أيضاً العمل التشريع الرئيسى الأخير الذى طبع باللاتينية فيما عدا معظم العهد الجديد و لكن أجزاءه ذات الأكثر أهمية قد ترجمت بعد ذلك إلى اليونانية وصوحبت بشروحات أيضاً باليونانية . التحول الهلينى للإمبراطورية وهو الذى تم أيضاً فى حكم جستنيان قد انتشر تحت حكم خلفائه وينتج عنه نظام تشريعى جديد مكتوب فقط باليونانية وكان يهدف إلى خدمة وتوحيد السكان المتكلمين باليونانية بصفة رئيسية للدولة البيزنطية الوسطى القيم المسيحية مثل التراث الهلينى للشرق الذى أخذ فعلاً فى الاعتبار بواسطة المشرعون فى القرن السادس ذو انطباع وتأثير متزايد على تطور القانون البيزنطى .

من القرن السابع إلى التاسع :

أثناء القرن السابع وبعدها أثرى التشريع الجستنيانى بالشروحات الهامة التى وضحت و جددت القانون الرومانى التقليدى الذى بقى بلا تغيير لأنه اعتبر إطار مستمر للتغير الدائم للعلاقات الإنسانية . مع ذلك بالرغم من كل المميزات الكبيرة جلبت القوانين الرومانية مشاكل رئيسية للاستعمال اليومى بسبب مجالها الواسع بالتالى وراء التشريع الخاص للأباطرة والذى يعرفه القليل نظراً لندرة الدليل – كانت هناك جهوداً فى تلك المدة لتأليف دراسات تشريعية و التى استخدمت كصياغات مؤقتة بواسطة القضاء والمحامون فى الممارسة اليومية حول نفس الفترة (نهاية القرن السابع وبداية الثامن) صدر قانون الفلاح وليس واضحاً فيما إذا كانت هذه الصياغة والتى كانت فى الواقع تداول عملى ، كانت عمل خاص بموظف الولاية أو أنه صدر رسميا عن طريق الإمبراطور . فى كلا الحالتين فهو بلا شك مصدر هام جداً لتاريخ الريف البيزنطى فهو يمدنا بالكثير من ملاك الأراضى الذين كانوا فى مجتمعات قروية تعاونية أو خاصة وذو التزامات ضريبية تجاه الدولة صياغة أخرى ذات شخصية خاصة جداً وعملية وهو القانون الروديسى

والذى ربما تألف بين القرنين السادس والثامن فهو مجموعة من السياسات الخاصة بالإبحار والتجارة البحرية مثل توزيع الأرباح وتنظيمات خاصة بالأمن على السفن وإقتسام المسئوليات فى حالات السرقة أو تلف البضاعة أو السفينة ، رغم أنها متأثرة بمبادئ قانون جستنيان الأول ، كان القانون الروديسى مؤسس بصفة رئيسية على العادات والتقاليد المحلية فى مجال القانون الإدارى يوجد عمل جورج القبرصى بصفته للولايات البيزنطية وتاكتيكون أو بنسكى الذى يحوى تعداد تسلسلى لموظفى الدولة (٨٤٢ – ٨٤٣) .

من القرن التاسع إلى الثانى عشر :

حدث الجهد الأكبر لتجديد الصياغة الشرعية فة القرنين التاسع والعاشر ، بوحى من الإمبراطور باسيلى الأول المقدونى (٨٦٧ – ٨٨٦) الذى من أنه فقير علمياً أو ربما لهذا السبب أدرك أن النظام التشريعى قد أصبح معقداً للغاية للعدد الكبير من القوانين التى صدرت بواسطة الأباطرة المتتاليين التى حلت محل الصياغات المتواجدة وكانت الصياغة الأحدث هى الآشورية .

وقد رفضت بشدة لكونه صدرت بواسطة الإمبراطور الراهب باسيلى الأول أتم مشروع كبير الذى أسماه تقنين القوانين القديمة فقد أعيد فحص جميع التشريعات الموجدة والقوانين فقدت أسباب وجودها وجمعت فى كتاب خاص والذى لم ينجو ، وقد صدر فى حكم باسيلى قوانين مبدأً التنظيم وقصيرين الأول بين عامى ٨٧٠ – ٨٧٩ والآخر بين عامى ٨٧٩ – ٨٨٦ ، كلاهما لتسهيل خدمة أغراض عملية التى حددها الإمبراطور ، ومستوحاه من التشريع الجستنيانى وأيضاً العادات المحلية .

ومع ذلك كلاهما لم يكن ما كان يرغبهما باسيلى بشكل رئيسى ابنه وخليفته ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢) استمر فى نفس المسارات ، فقبل عام ٩٠٠ كان ليو قد أصدر مجموعة ١١٣ الجديدة والتى تتعامل أساساً مع

متطلبات التطهير فهو أساً مهتم بإلغاء التشريع الذى وقع فى عدم الواقعية مثل السلطات التشريعية لمجلس الشيوخ الحكومات الذاتية للمدن وعملية القنصل العادى تماماً مثل تفعيل قانون لعادات معينة ، مثل قانون مباركة الكنيسة لأى زواج .

وبنهاية حكم ليو السادس كان قد تم المشروع الكبير لباسيلى وقد صدر ليحل محل المجوعة الجستنيانية وبالتالى صوحب بشروحات ثرية ، أثناء مدة التطهير والصياغة صدرت عدة مواد للشخصية الإدارية مثل القوانين العسكرية التى نسبت إلى ليو السادس ومادة تنظيم المناصب الكبرى للمحكمة والموظفين وقوانين تنظيم أسبقية رجال الدين ، والأهم من ذلك الكتاب الذى يضم مجموعة من القوانين التى تنظم شئون التجارة والصناعة من القسطنطينية وحماية حارات الكنيسة والصناعة والصيارفة وبائعى الفاكهة والجزارين والصيادين والخبازين وصانعى السرج فلكل فن وحرفة محتسب له السلطة فى التحكم فى كمية ومواصفات البضاعة المباعة للعامة وأثمانها .

ذلك الكتاب بالرغم من شخصية التنظيمية بعكس أهم وأثمن وسيلة لقواعد قانون التجارة فى فترة بيزنطة الوسطى ، ففى فترة حكم ليو السادس اهتزت الإمبراطورية بسبب الخلاف العقائدى الكنسى الذى سببه الزواج الرابع للإمبراطور ، فمن عام ٩٢٠ فصاعداً ظهر مبدأ جديد للقانون وأضيفت قضايا قانون الأسرة أكثر اعتماداً على الناحية الكنسية أكثر من التشريع الإمبراطورى .

من القرن العاشر يوجد عدد هام من الكتابات المهتمة بالقانون الإدارى مثل ذلك الذى صدر فى (٩٣٤ – ٩٤٤) و (٩٧١ – ٩٧٥) علاوة على ذلك توجد أعمال مؤثرة للإمبراطور قنسطنطين السابع والتى يصف فيها ولايات الإمبراطورية وهى مادة يخاطب فيها ابنه رومانوس وعده بمعلومات تفصيلية ونصيحة بشأن العلاقات الخارجية لبيزنطة وتجمع موسع لطقوس البلاط ، ويوجد أيضاً كتابين عن ضريبة الأرض إحداها محفوظ فى مكتبة مارشيانا والأخرى

اكتشفت حديثاً فى مكتبة الدير اليونانى فى زابوردا ، ويؤرخ الباحثون المؤلف لتلك النصوص بين القرنين العاشر والثانى عشر منذ القرن العاشر فصاعداً يوجد عدد ضخم من الكتب التى غرضها الأساس كان إعادة ترتيب المادة التشريعية بطريقة ستهل الاستشارة ، بالرغم من شخصيتهم الأكثر أو الأقل خصوصية هذه الكتب تبدو متنمق بهين خاصة وذات تعداد كبير فهى تضم عدداً من القوانين التى صدرت فى حكم ليو السادس ونبذة كبيرة من أعمال باسيلى والمراجع الضرورية للنصوص الأصلية هذا الكتاب التطبيقى والتى تتخلله دستة محررات محققة من القرن ١٣ قد أثرى بفهارس التى فيها سجل تشريع جديد وهام هذا التشريع الجديد للقرن العاشر اهتم أساً بحماية الفلاحة الحرة من طغيان كبار الملاك ، سلسلة من التجديدات الإمبراطورية بادئاً من تلك لرومانوس الأول ليكابينوس (٩٢٠ – ٩٤٤) ومستمراً مع هؤلاء لقسطنطين السابع (٩٤٥ – ٩٥٩) ورومانوس الثانى (٩٥٩ – ٩٦٣) وتيقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ – ٩٦٩) وباسيلى الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥)، وكان هدفهم الأساسى هو وضع عقبات فى سبيل زيادة ملكية الأراضى على حساب صغار الملاك وخاصة الفلاحين الجنود الذين يكونون عصب الجيش البيزنطى وكان حافز هذا التشريع هو الدولة أكثر منها اجتماعى وبالتالى لم تكن له نتائج دائمة على الرغم من ذلك فإن أساس هذا التشريع الذى أحيا حق التملك ظل صالحاً حتى نهاية الإمبراطورية .

لـــم يكـــن النشـــاط التشـــريعى فـــى القـــرن الحـــادى عشـــر ذو تأثير خاص وقع ذلك وجد عمل شيق لا وسياسيوس رومانيوس والذى قسم إلى خمـــــس وســـــبعون مـــــادة ويحـــــوى ملخصـــــات للأحكام القضائية لاستاسيوس وقضاة آخرون لمحكمة القسطنطينية العليا .

ومن نهاية القرن العاشر وحتى العقود الأربعة الأولى من القرن الحادى عشر مقسمة حسب الموضوع وتقع أهميته فى كيفية تطبيق القانون المكتوب

والمدى الذى تؤثر فيه العادات المحلية على القضاء الإمبراطورى وحتى القرن الحادى عشر كان القانون يدرس داخل جمعية الكتاب الحكوميين والتعبير الرئيسى الذى حدث تحت حكم قسطنطين التاسع (١٠٤٢ – ١٠٥٥) فى بداية حمكه أوجد مدرسة القانون بمكتبة متخصصة فى دير مقانة بالقسطنطينية ويرأسها موظف رفيع المستوى يطلق عليه الحارس القضائى وأول من شغل هذا المنصب كان جون الحادى عشر الذى أصبح بعد ذلك بطريرك (١٠٦٤ – ١٠٧٥) .

وبالرغم من هذه المدرسة الجديدة ذات الهيبة لم تتعدى الدراسات الشرعية البيزنطية إلى المستويات العليا التى حازها من القرنين التاسع والعاشر .

يوجد عملية لهم بعض الأهمية من القرن الحادى عشر نبذة عن القانون لمايكل سيلوس وهى قصيدة من ١٤٠٠ بيت يخاطب فيها سيلون تلميذه الإمبراطور القادم مايكل السابع (١٠٧١ – ١٠٧٨) التى تحتوى على ملخص تشريع للقاضى مايكل أطلس الذى لم يحتوى على أى تجديدات جوهرية بالرغم من أنه يركز على قانون العقوبات .

وفى القرون الأخيرة كانت بيزنطة فقيرة فى الأدب التشريعى فالقضاة العالميين فقدوا أهميتهم مقابل الاكليربكيين مثل أسقف أكرد ديمتريوس كومانيتوس ورئيس نابوكتوس جوت أبوكوكوس والتى كانت أحكامه هى المصدر الرئيس للإجراءات التشريعية فى بداية القرن الاثلث عشر ومنذ ذلك القرن يوجد أيضاً مؤسس جديد ، الملخص الصغير للبارسبليات مؤسس على الملخص الكبير لمايكل اقليتس وآخر قد ظهر تقريباً ١٣٠٠ ومع ذلك العمل الوحيد ذو الأهمية فإن فى هذه الفترة هو الكتب العشرة التى طبعت فى ١٣٤٥ بواسطة القاضى تيسولونيات القاضى الأكبر للقسطنطينية هذا الإصدار حدث كلية ومنظم بأسلوب وعناية وبقة هو الكتاب التشريعى الرئيسى ليس فقط للقرن الأخير

لبيزنطة ولكن فى القرون التالية للسيطرة التركية فى البلقان بالنسبة للقانون الإدارى يوجد عدة قوائم من السابقة للقرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وإحدى أهم هذه الأعمال هى رسالة تفصيلية على مراكز البلاط تم تأليفها فى منتصف القرن الرابع عشر لمؤلف غير معروف باسم مستعار كودينوس .

يجب التأكيد أخيراً أنه من خلال تاريخ القانون البيزنطى قد تأكد أنه تأثر بشدة على التشريع للدولة الأرثوذكسية المجاورة خاصة السلافية الذين ترجموا عدة أجزاء من القانون البيزنطى وطبقوها فى دولتهم .

الباب الثانى
التعليم والمدارس والجامعات
فى أوروبا العصور الوسطى

التعليم فى أوائل العصور الوسطى

يحسن بنا أن نبدأ هذا الموضوع بالإشارة إلى حقيقة جديرة بالاهتمام ، وهى أن التعليم فى أوربا العصور الوسطى لم يقتصر على المؤسسات الأكاديمية المعروفة من مدارس وجامعات فحسب ، وإنما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير إقطاعى بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء وتدريبهم حتى يكونوا فى المستقبل فرساناً صالحين مؤهلين خلقياً وحربياً ، هذا إلى بيوت الأسطوات من أصحاب الحرف والتجار صارت هى الأخرى معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيئتهم للحياة العملية . وليس هناك من شك فى أن هذه الاتجاهات وأشباهها أسهمت فى تربية نسبة محدودة من أبناء العالم الغربى فى عصر انكمش التعليم العام وقل الإقبال عليه .

أما فيما يتعلق بهذا التعليم العام فيلاحظ أن العصور الوسطى ورثت النظم الرومانية ، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التى احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم ، على الرغم من أن الكنيسة غيرت كثيراً فى أفق المعرفة القديمة ومادتها ، حتى قيل أن نمو الكنيسة فى الغرب جاء مصحوباً بتدهور سريع فى الدراسات الكلاسيكية ، على أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعة فى نظم التعليم مثلما كان الحال فى مواد الدراسة ، فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير فى نظمها وإن اختلفت فى مظهرها العام .

وكما أخذ التعليم الرومانى عن اليونان أخذ التعليم فى العصور الوسطى عن الرومان ، وبخاصة عن مدارس البلاغة الإمبراطورية ، ذلك أنه كانت هناك فى أوائل الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة فى المدن الكبرى ، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين . أما المرحلة الأولى أو الابتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى ، فى حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شئ من الدراسات القانونية والفلسفية . على أن مدارس البلاغة هذه لم تلبث أن اختفت فى القرن الخامس ، وإن ظلت المدارس العلمانية – التى سارت وفق الأسلوب الرومانى فى التربية – منتشرة فى أجزاء من غاليا وإيطاليا حتى نهاية القرن السادس . ومن المعروف أن العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية فى الغرب كان أحلك العصور فى تاريخ أوروبا الثقافى . ومهما تكن أهمية الدور الذى قامت به الكنيسة فى الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذى ظل مضيئاً فى سماء غرب أوروبا فى القرن السابع فمن الثابت أن كتب النحو التى اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتبات دوناتوس وسرفيوس وهما من علماء القرن الرابع وكلاهما وثنى ، فى حين ظل كتاب برسكيان عن " قواعد النحو " – الذى ألفه باللاتينية حوالى سنة ٥٠٠ فى ثمانية عشر جزءاً – يمثل المرجع الأول فى ذلك العلم .

على أن أهم ما ميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعاً تاماً لسيطرة الكنيسة نتيجة لانحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة فى المجتمع الغربى من جهة ، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجياً من

جهة أخرى . وهنا نلاحظ أن الكنيسة أقرت تدريس الفنون الحرة – التى كانت تلقن للتلاميذ فى المدارس الوثنية – ولكن على أسس مسيحية ، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولابد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه . وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين مارتيانوس كابلا الذى كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . ولعل نظرة تحليلة يلقيها الباحث على هذه المجموعة من الدراسات تكشف له أنها تنقسم إلى قسمين : دراسات إنسانية ودراسات علمية ، وقد أدرك الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٥ – ٥٢٣) هذا الفارق فقسمها إلى مجموعة ثلاثية تشمل النحو والبلاغة والمنطق ، ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب ، وعن طريقة انتقل إلى المدارس الديرية ، مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة فى تاريخ التعليم فى أوربا العصور الوسطى .

وقد ظلت المدارس فى الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهئ تعليماً ابتدائياً عاماً لإعداد الأفراد للحياة ، ولكنها لم تلبث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفوراً قوياً من التعليم ، حتى أن ثيودريك – ملك القوط الشرقيين – حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجاً بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم فى المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب ، وهكذا لم يكد ينتهى القرن السابع إلا كان التعليم فى أوربا قد أصبح ديناً بحتاً داخل مدارس ديرية وأسقفية واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثانى عشر . وهنا نشير إلى أن مدرسة القصر المشهورة فى الدولة الميروفنجية لم تكن

مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من هذا الاصطلاح ، وإنما كانت تقليداً لمدرسة تريف فى أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية ، فكان الغرض منها تدريب الشباب حربياً وتعليمهم ركوب الخيل وحمل السلاح ، بالإضافة إلى بعض المعلومات اللازمة لمباشرة الوظائف العامة مثل مبادئ القانون المدنى والكنسى ، وفى هذه المدرسة كان يتدرب غلمان البلاط الميروفنجى .

ومهما يكن المر ، فإننا نعود فنقول أن الانتقال من التعليم القديم إلى تعليم العصور الوسطى لا يعنى تغييراً كبيراً فى أسلوب التعليم بقدر ما كان هناك من تغيير فى روح التعليم ومواد الدراسة . وقد بدأت هذه الثورة حوالى سنة ٦٠٠ عندما ازداد نفوذ البابوية فى توجيه التعليم ورسم سياسته ، فأصبح التعليم منصباً على الإنجيل واللاهوت ، الأمر الذى جعل الدراسات الإنسانية تحاول فى مشقة بالغة الاحتفاظ بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون . ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم إلا بتدريس اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات ، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشئ ليصبحوا من رجال الدين . بل أن البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) أشتهر بكراهيته للأسلوب البلاغى الكلاسيكى وتفضيله اللاتينية الدارجة ، بالإضافة إلى اعتقاه الراسخ فى عدم جدوى كافة الدراسات التى لا تساعد فى فهم العقيدة المسيحية .

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الرقية والثقافة الإنسانية – بما فيها معرفة اللغة اليونانية – إلا فى أيرلندا ، التى انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كالدونيا (سكتلنه) ونور ثمبرلاند ، ثم بقية أنحاء إنجلترا ،

ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صلب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التى قامت فى غاليا الفرنجية وألمانيا ولمبارديا ، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير بوبيو . وكان من المحتمل أن تقضى الحركة البندكتية على هذا الإشعاع العلمى لولا جهود القديس بونيفيس (ت ٧٥٥) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التى غادرت إنجلترا غادرت إنجلترا إلى القارة . حقيقة إن الهدف الأساسى لرجال هذه البعثات كان نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية ، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية ، وهكذا فإن الفضل يرجع إلى الأديرة التى أسسها القديس برنيفيس فى فولدا وهرسفلد ، وإلى المدارس الأسقفية والديرية التى أحياها ذلك القديس ، فى إنقاذ الحياة العلمية فى العصور المظلمة ، وفى تمهيد الطريق لما قام به شالرلمان من إصلاح المدارس وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التى تعرف باسم النهضة الكارولنجية . [١]

النهضة العلمية فى عصر شارلمان

عاش الغرب الأوروبى قرناً طويلة من الفوضى والظلام منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الخامس على أيدى الجرمان البرابرة ، إلى أن تم إحياؤها من جديد فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠م فى عهد الإمبراطور شارلمان تحت اسم (الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة) . وكان استقرار الأحوال فى هذه الإمبراطورية من العوامل التى

ساعدت على رقى الحضارة والثقافة وازدهارهما ، ويرجع الفضل إلى شارلمان فى إحياء هذه النهضة المبكرة التى ارتبطت باسمه وشخصه أكثر من ارتباطها بالعصر الذى عاش فيه ، وثمة فريق من المؤرخين يرى أن الحركة الجامعية فى الغرب إنما ترجع أصولها إلى نهضة شارلمان فى القرن التاسع ، وإن كان هناك كثير من الجدل حول هذه المسألة .

لقد كان شارلمان حاكماً عظيماً رتب أمور دولته أحسن ترتيب ، بما يتفق وروح العصر الذى عاش فيه وتلك الدولة الشاسعة التى كونها بحروبه وفتوحاته الواسعة ، كذلك حالفه التوفيق فيما يتعلق بإدارة تلك الدولة المترامية الأطراف ، باستعانته بالحكام المحليين ، وربط الحكومات المحلية بالحكومة المركزية ، مما أدى إلى وجود حالة من الاستقرار فى الغرب بعامة وفى غالة بخاصة فى هذا العصر ، وانعكس ذلك على حالة الأمن التى سادت الإمبراطورية ، ازداد الرخاء وعظمت الثروة كنتيجة للقضاء على الأحوال المضطربة التى سادت الغرب فى القرون السابقة ، ولاشك أن نفوذ شالمان نفسه كان من العوامل التى ساعدت على إنعاش هذه الحركة ، كما كان من دواعى ازدهار الحضارة والثقافة فى هذا العصر ، فانتعشت الفنون بعد أن أسدل انهيار الدولة الرومانية عليها الستار ، كذلك بدأ الفن المسيحى يزدهر من جديد وعلى وجه الأخص فى العمائر الدينية التى بدء فى تأسيسها ، وكان من أهمها الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى التى شيدها شارلمان فى عاصمة إمبراطوريته وهى مدين آخن ***Achen*** ، والتى ظهر فيها تأثير الأساليب

القديمة والبيزنطية معاً ، فأنتجت نوعاً جديداً من الفن والمعمار لا هو بالقديم ولا هو بالبيزنطى ، واصطلح العلماء والمؤرخون على تسميته بالفن الرومانى الحديث ***Romanesque*** ، وهو الفن الذى يرجع إلى القرن التاسع الميلادى ، والذى تطور مع مرور الوقت وانتهى به المر فى غرب أوروبا إلى أسلوب آخر من أساليب المعمار هو الأسلوب الوسيط البحت المعروف بالفن القوطى ***Gothic Art*** الذى تظهر فيه العناصر الجرمانية وروح الذوق الوسيط .

هذا فيما يتعلق بالفن وهو مرآة للنهضة الكارولنجية ، أما عن حركة العلم والتعليم ، فقد اهتم بها شارلمان اهتماماً كبيراً بالرغم من أنه لم يكن عالماً أو متعلماً بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وتعتبر هذه النهضة من ابرز مظاهر عصر شارلمان ، ولم تشمل عاصمته فحسب وإنما امتدت لتشمل بقية أجزاء الإمبراطورية ، ومن الأمور التى ساعدت على ظهور هذه النهضة المبكرة استقرار الأحوال نوعاً فى غالة وبقية الغرب الأوروبى وقيام مدينة جديدة لا هى رومانية خالصة ولا هى جرمانية خالصة ، وإنما رومانية جرمانية فى نفس الوقت ، يضاف إلى ذلك شخصية شارلمان نفسه وحبه للعلم وتشجيعه له ، ويرجع اهتمام شارلمان بالحركة العلمية أن غالة فى عصره كانت فى أمور العلم والتعليم دون مستوى بقية أجزاء الغرب الأوروبى ، وصمم شارلمان على أن تتفوق غالة على جيرانها فاستدعى إلى عاصمته الكثير من علماء عصره المبرزين من الغرب ، وبخاصة من إسبانيا وإيطاليا وإنجلترا ، وذلك لتثقيف أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته ، وهكذا استدعى إلى بلاطه الفلاسفة واللاهوتيين من أمثال الشاعر ثيودولف الإسبانى وبطرس البيزوى المتخصص فى النحو

وفقه اللغة والمؤرخ بولس اللومباردى والمفكر الكوين الإنجليزى ، للاشتغال بأمور التعليم فى مدرسة البلاط التى أسسها فى قصره ، وعهد بتدبير أمورها إلى الكوين ، وكان شارلمان مع تقدم سنه وكثرة أعماله ومشاغله وحروبه لا يجد غضاضة فى أن يجلس إلى جانب صبيان القصر فى هذا المعهد ليستزيد من نور العلم والمعرفة ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مركز علمى متنقل ، إذ أمر شارلمان أن تصاحبه حيثما وأينما ذهب ، حتى فى رحلاته ، وأسفاره وحروفه ، وكثيراً ما كان يدخل فى حوار روحى مع مدير المدرسة ، ويشجع الطلبة على المذاكرة وتحصيل العلم والمعروف أن هذه المدرسة لم تكن من خلق شارلمان تماماً ، إذ سبقه إلى ذلك شارل مارتل الذى أسس مدرسة الفروسية ، ومع ذلك كانت مدرسة البلاط التى أسسها شارلمان تختلف عنه ، إذ اتسعت دائرة الانتساب إليها ، كما لم تقتصر الدراسة فيها على تعلم فنون الحرب والقتال إنما امتدت لتشمل كافة المعرف والعلوم .

كذلك اهتم شارلمان بجمع الكتب القديمة من بين البقية التى لم تعد عليها عادية الزمن من مؤلفان اللاتين فى إيطاليا وغيرها من الأقطار ، واهتم أيضاً بالمكتبات ، وعمل على إحياء الدراسات الدينية والأدبية والفلسفية والتاريخية ، كذلك وجه عناية خاصة إلى المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، وعمل على رفع المستوى الثقافى للرهبان الذين أخذوا يهملون أصول العلم والتعليم ، ونلمس ذلك من خطاباته إلى رجال الدين يستحثهم فيها على التزود بالثقافة الأدبية ومواصلة العلم والتعليم إلى جانب الاهتمام بالشئون الدينية والأمور الروحية . وقد نص فى هذه

الخطابات على ضرورة الاعتناء بالنطق السليم والكتابة الصحيحة الخالية من الأخطاء ، كذلك دعا إلى تدريس الفنون الحرة بجميع الكنائس .

وعند التحدث عن النهضة الكارولنجية ، نجد أن التاريخ يحتل مكناً بارزاً فيها ، لقد انتعشت حركة التدوين التاريخى فى عصر شارلمان ، وتقدم فن الكتابة التاريخية ، ومن كتب التاريخ التى ترجع إلى عهده كتاب اينهارد ***Einhard*** المعنون " حياة شارلمان " ***Vita Karoli*** ، وهو المصدر الأدبى الأساسى فى هذا الموضوع ، وقد كتب شخص آخر يدعى ادلهارد ***Adelhard*** مؤلفاً عن نظام حكومة الدولة ***De Ordme Palath*** . وقد ضاع أصل هذا الكتاب المخطوط فى عصر متقدم ، ولكن أحد رؤساء أسقفة ريمز فى القرن التاسع واسمه هنكمار ***Hincmar*** احتفظ بمادته الأساسية فى رسالة موجودة حتى اليوم . ولاشك أن تأثير هذه النهضة الجديدة قد امتد إلى كثير من مرافق الحياة والعلم ، منها حركة تحسين الخطوط ، إذ تطور الخط فى هذا العصر تطوراً معروفاً عند علماء الخطوط .

والخلاصة أن النهضة الكارولنجية كان لها أكبر الأثر فى تطور الحياة الفكرية فى الغرب ، وفى إحياء اللغة اللاتينية والدراسات المتعلقة بها ، ولكن يجب ألا نبالغ فى تقدير ما وصلت إليه الحضارة الكارولنجية فى الفنون والآداب والعلوم ، ويجب أن ننظر إليها كأول خطوة متواضعة نحو الأمام ، وحركة طيبة فى سبيل التقدم بعض عصور شملها الظلام الحالك منذ سقوط الدولة الرومانية وانهيار الحضارة والمدنية العظيمة المرتبطة بها . (٢)

المدارس الديرية والأسقفية

بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م أخذت إمبراطوريته فى التصدع بسبب تقسيم دولته الواسعة بين أبنائه وخلفائه ، والأساس الاقتصادى الذى قامت عليه وهو أساس زراعى إقطاعى بحت . وساد الظلام ثانية حتى أخريات القرن العاشر تقريباً ، حيث تعطلت الحياة الفكرية تعطلاً يكاد أن يكون تاماً ، وذلك باستثناء الأديرة التى ظلت تؤدى رسالتها التعليمية والثقافية كما كان الحال من قبل ، وصارت مراكز للإشعاع العلمى ، لذلك أطلق بعض المؤرخين اسم " العصر البندكتى " على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان ونهاية القرن العاشر لأن رهبان أديرة القديس بندكت هم الذين تولوا حركة التعليم العام وأظهروا اهتماماً واضحاً بالعلم والدراسة ؟

ومن المعروف أن الأديرة البندكتية من أقدم الأديرة التى تأسست فى الغرب الأوربى ، وهى تنتسب إلى القديس بندكت الذى بدأ حياته راهباً بوسط إيطاليا ، ولمس ما كان يعانيه الرهبان من صعاب ، فقام بتأسيس ديره الأول فى كونت كاسينو ، والتف حوله عدد من الرهبان الذين وضع لهم قانونه المعروف باسمه ، وهو يقوم على أربع قواعد رئيسية هى : التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء ، ومما يذكر أنه وجه عناية خاصة إلى التعليم فأوجد فى كل دير نواة لمكتبة ومكاناً لنسخ الكتب تشجيعاً لمن يجدون فى نفوسهم ميلاً للكتابة والتأليف ، وأصبحت الديرية البندكتية منبعاً للعلم والمعرفة وانتشرت بسرعة فى شتى أرجاء الغرب الأوروبى ، ومن الأسباب التى جعلت الأديرة البندكتية من أهم المراكز التى اعتنت بالدراسات الكلاسيكية القديمة أن تراث النهضة الكارولنجية قد انتقل

إليها بالإضافة إلى أنها لم تشارك الهيئات الديرية الجديدة فى الاهتمام بما يتعلق بالشئون الدينية فحسب .

وكيفما كان الأمر ، فيمكن القول بأن الأديرة البندكتية قامت بأكبر خدمة للحضارة الفكرية والعلمية والأدبية فى مجتمع غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، وقد حفظت فى مكتباتها الكثير من أمهات الكتب الكلاسيكية القديمة التى كانت معرضة للضياع أثناء غارات البرابرة على الغرب الأوروبى وأثناء محاربة الكنيسة المسيحية لكل ما يمت التراث الرومانى القديم بصلة ، باعتبارها تراثاً ضاراً عديم الفائدة من وجهة نظر المسيحية ، وفى تلك الأديرة التى كانت فى نفس الوقت دوراً للعلم والتعليم ، واصل النساخ والمؤلفون تحرير الكتب العلمية والتاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التى مازال الكثير منها متداولاً إلى اليوم .

وكذلك تميزت الأديرة فى العصر البندكتى بأنها فتحت الأبواب لطلاب العلم من غير الديرين ورجال الدين لأول مرة فى تاريخها ، ومن ثم صار لكل دير من الأديرة منذ بداية القرن التاسع الميلادى مدرسين منفصلتين إحداهما للنظاميين من أهل الدير والأخرى للخارجين . وهنا نكرر القول إن المدارس التى قدمت تعليماً متقدماً حتى نهاية القرن العاشر كانت مدارس ديرية وذلك باستثناء مدرسة القصر فى عصر شارلمان ، وعلى هذا يكاد أن يكون جميع الرجال المثقفين بحق من فئة الرهبان أو من رجال الدين ، وفيما عدا ذلك فإن طبقى الفرسان المحاربين والفلاحين الكادحين فى الأرض لاشك لهما بأمور العلم والتعليم بحكم الظروف التى أحاطت بالمجتمع الغربى فى العصر الوسيط آنذاك .

وإلى جانب المدرسة الديرية قامت المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية بواجبها فى نشر حركة التعليم ، وكان الأسقف فى أول الأمر هو الذى يتولى رئاسة المدرسة الملحقة بأسقفيته ولكن ازدياد المسئوليات التى اضطلع بها الأسقف أدت إلى تعيين " أستاذ " ***Magister Scholarium*** للإشراف على التلاميذ ، وإن كان أمين الكادترائية هو الذى تولى فى بعض الحالات – مثل كاتدرائية باريس – الإشراف على المدرسة . وثمة ميزت اختصت بها المدارس الأسقفية دون الديرية ، وهى أن الرقابة على التلاميذ صارت فى الأولى أقل منها فى الثانية ، كما أن الأولى أتيح لها نوع من الحرية فى برامجها ونظامها الدراسية ، مما جعلها تتفوق على المدارس الديرية التى أصابها الجمود والرتابة ، بسبب صرامة نظمها ولم يأت القرن الثانى عشر إلا وقد أخذت المدارس الديرية فى الأفول ، فى الوقت الذى ازدهرت المدارس الأسقفية التى صارت قمة النشاط الفكرى فى الغرب الأوروبى ، وينبغى القول هنا أن المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية لم تختلف عن المدارس الديرية فى طابعها الدينى وأهدافها الكنسية . واهتمت المدارس الكاتدرائية بدراسة النحو اهتماماً بالغاً وإعطاء الطلاب تطبيقات عملية عليها ، بالإضافة إلى دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها . كذلك حظيت العلوم الأخرى باهتمام المدارس الكاتدرائية ، وفى مقدمة تلك العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون . [٣]

أسباب وعوامل نهضة القرن الثانى عشر

من هذا العرض التاريخى الموجز نستطيع أن نتلمس العوامل الرئيسية التى أدت إلى قيام نهضة أوروبية شاملة فى القرن الثانى عشر ، فمن هذه العوامل ما لاحظناه منذ أواخر القرن الحادى عشر من تقدم ونشاط تجارى لاسيما فى شمال إيطاليا ، وما صحب ذلك النشاط من نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية ، فليس هناك من شك مثلاً فى أن الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته تلك المدن أدى إلى شعورها بالحاجة إلى تنظيم قوانينها لتحديد نظمها الإدارية من جهة وتحديد علاقاتها مع غيرها من الوحدات السياسية من جهة أخرى ، وبالتالى ساعد ذلك حركة إحياء الدراسات القانونية التى ظهرت فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر ، والتى تعتبر من أهم مظاهر النهضة الأوروبية فى ذلك القرن .

كذلك أدى النشاط الاقتصادى لهذه المدن إلى ظهور رؤوس الأموال واتساع نطاق الأعمال المصرفية بشكل لم تعهد أوروبا من قبل . ولكن مع ذلك ينبغى ألا نبالغ فى أثر النشاط الاقتصادى للمدن الإيطالية بالنسبة للنهضة الوسيطة فى القرن الثانى عشر ، فإذا كان الكتاب المتأخرون يربطون دائماً بين قيام النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر ونشاط المدن الإيطالية فى الميدان الاقتصادى ، إلا أننا لا نستطيع الربط بين الحقيقتين فيما يتعلق بالنهضة الوسيطة فالمعروف أن هذه

النهضة الأخيرة لم تكن إيطالية بحتة ، ولم يرتبط مولدها بإيطاليا وحدها ، فإذا صح المبدأ السابق على إيطاليا فى القرن الثانى عشر وقلنا أن النهضة فيها ارتبطت بنشاط ونمو القومونات الإيطالية ، فإنه لا يصبح على غيرها من البلاد الأوروبية فيما وراء جبال الألب مثل فرنسا حيث بدت مظاهر النهضة فى القرن الثانى عشر غير مصحوبة بنشاط تجارى أو اقتصادى غير عادى ، هذا مع ملاحظة أن الطبقة الوسطى التى قامت على أكتافها القومونات قد وجهت نشاطها نحو الميادين الاقتصادية والسياسية ، ولم تسهم بقدر بارز فعال فى النشاط الفكرى والعلمى ، ولم يكن ذلك إلا فى القرن الرابع عشر عندما أخذ أفراد تلك الطبقة يوجهون نشاطهم نحو الميدان الثقافى والفكرى .

وهناك عامل ثان ساعد على قيام النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر ، هو روح الاستقرار التى تمتعت بها بلاد غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر بعد أن انتهى خطر الشماليين من جهة وأخذت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية تستقر من جهة أخرى ، وقد أدى هذا الاستقرار والسلام إلى نشاط الاتصال الحضارى والتجارى بين الدول الأوربية ، كما أدى إلى التفرغ للنواحى الثقافية والحضارية ، وهنا نجد بعض ملوك أوروبا مثل ملوك النورمان بصقلية وهنرى الثانى ملك إنجلترا يتجهون نحو تشجيع الحياة السياسية والعلمية فى بلادهم . ويصح أن نشير إلى أن الغزو النورماندى لصقلية وجنوب إيطاليا أدى إلى ازدهار حركة الترجمة عن الإغريق ، كما ساعد على ازدهار هذه الحركة نمو العلاقات الاقتصادية بين القسطنطينية من جهة والقومونات الإيطالية من

جهة أخرى ، هذا فى الوقت الذى أعطى ملوك صقلية النورمان الثقافة العربية حقها من الرعاية والتشجيع .

وفى ذلك الوقت اسهمت الكنيسة فى بناء هذه الحركة عن طريق الإنفاق على الرحلات التى يقوم بها رجال الدين وعن طريق العناية بالكتب ونسخها ، هذا إلى أن ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها نتيجة للحروب الصليبية وموقفها الصلب من الإمبراطورية جعلها قبلة المعاصرين لاسيما من رجال الدين فأصبحت الطرق الأوروبية تعج بالحجاج القاصدين روما أو غيرها من الأماكن المقدسة مثل كومبوستيلا ***Compostela*** . ونتج عن ذلك ازدياد الروابط الثقافية والفكرية بين مختلف أنحاء أوروبا وظهور كثير من ملاحم الحجاج وأشعار وأغانى البطولة ***Chansons de Gestes*** .

وهناك عامل آخر أدى إلى ازدهار النهضة الأوروبة فى القرن الثانى عشر يتضح فى اشتداد ضغط القوى المسيحية على العرب فى الأندلس حتى بلغت الفتوح المسيحية طليلة سنة ١٠٨٥م وسرقسطة سنة ١١١٨ ، وترتب على ذلك أنه كلما ازداد توسع المسيحية على حساب الملسمين فى تلك البلاد كلما اتسعت الفرصة أمام علماء وطلاب الغرب فيزداد تدفقهم على أسبانيا واكتشافهم للمؤلفات التى ألفها العرب أو ترجموها عن الإغريقية وإلى هذه العلوم العربية التى وصلت أوروبا منذ القرن الحادى عشر يرجع الفضل الأكبر فى ازدهار كثير من الدراسات فى النهضة الوسيطة . (٤)

النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر :

دخلت أوروبا دوراً جدياً من أدوار الاستقرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى اعتبارً من القرن الحادى عشر ، وبعبارة أخرى أخذت أوروبا تشق طريقها نحو التقدم والرقى بعهد قرون من التكاسل والركود ، ويظهر ذلك بوضوح فى الانتعاشى التدريجى الذى أصاب النهضة الفكرية بصفة خاصة فنظم التعليم ومناهجه أخذت تنمو على نفس الأساس الذى قامت عليه المدارس الدينية أيام شارلمان على أن الأوضاع أخذت تتغير فى أوروبا العصور الوسطى فى القرن الثانى عشر الذى شهد تطوراً حضارياً فى النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية ، وكان أن استيقظت أوروبا من سبات الفترة المظلمة التى عمت أرجاءها ، وتفتحت عيونها – كما سنرى – على حضارة إسلامية زاهرة دفعت بطلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء الغرب الأوروبى للتسابق نحو مراكز إشعاع هذه الحضارة للأخذ عن علوم المسلمين وترجمتها ودراستها والإادة منها ، الأمر الذى ترتب عليه قيام نهضة حضارية أطلق عليها " النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر " . وقد انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبى عن طريق ثلاث معابر رئيسية ، نرى من الأوفق أن نرتبها ترتيباً تصاعدياً حسب أهميتها وهى : الشرق الأدنى خلال الحروب الصليبية وصقلية وجنوب إيطاليا ، وأسبانيا .

وهكذا أقبل الأوروبيون يرتشفون فى نهم من المعارف والعلوم الإسلامية حتى ضاقت بهم المدارس الدينية فى وقت ازدهرت فيه حركة الفلسفة المدرسية ***Scholastcism*** ، وهم اسم يطلق على الحياة الفكرية التى سادت أوروبا منذ القرن التاسع حتى مولد العلوم الطبيعية الحديثة

حوالى القرن السادس عشر ، بمعنى أن النظريات المتداولة طوال هذه القرون الثمانية كانت عبارة عن الفلسفة التى لقنت فى مدارس التعليم العالى ، وعلى أية حال أصبحت الفلسفة المدرسية – أو التفكير المدرسى – الأساس الذى انبثقت منه الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ذلك أن اتساع نطاق المعرفة فى غرب أوروبا بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الديرية أو الأسقفية بنظمها الى كانت عليها فى أوائل القرن الثانى عشر تطلب قيام نظام جديد للتعليم العالى يفى بحاجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم ، ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التى تعتبر أعظم هدية قدمتها العصور الوسطى للعصور الحديثة .

وقد برز فى القرن الثانى عشر أعلام كانوا أعظم مظهر من مظاهر الحركة العلمية والحياة الفكرية التى سادات الغرب الأوروبى فى القرن الثانى عشر ، وأهم ما يعنينا من تلك الشخصيات القديس برنارد الذى دافع عن الجانب الدينى والأفكار الكاثوليكية المتزمتة ، وبطرس أبيلارد الذى دعا إلى تحرر الفكر وإطلاقه من قيود الكنيسة القديمة وتحرير الذهن من التقاليد العتيقة .

وقد نشأ القديس برنارد (١٠٩١ – ١١٥٣ م) نشأة دينية سليمة أهلته للدور العظيم الذى قام به فى خدمة الكنيسة وهو يعتبر فى الحقيقة أكبر ممثل للتفكير الدينى القديم ، ومن المتحمسين للنظام البندكتى بعد الإصلاحات التى أدخلت عليه وقد أسس دير كليرفون ***Clairvaux*** وأصبح رئيساً له سنة ١١١٥ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره حتى وفاته نحو أربعية سنة ، وفى خلال تلك الفترة ظل يسيطر على الحياة الدينية والسياسية فى غرب أوروبا ، وهو الذى وهب جماعة الديرية المشهورة

باسم " الإخوان السسترشيان " ***Cistercians*** القوة والعزم ، ونلمس نشاط القديس برنارد فى عدة مواقف ، فهو الذى حسم النزاع البابوى سنة ١١٣٠ ، وإليه أيضاً يرجع أمر تأسيس هيئة فرسان الدواية (فرسان المعبد) التى قامت بدور خطير فى الحركة الصليبية ، وهو الذى ساعد فى الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ التى قام بها الغرب الأوروبى من أجل استعادة الرها بعد أن استولى عليها عماد الدين زنكى سنة ١١٤٤م ، هذا ولم تصرف الأحداث القديس برنارد عن دراسته الدينية ، فقد تفوق فى الكتابة والتأليف حتى صار لاهوتياً من أكبر علماء الفقه الدينة فى عصره ، وفضلاً عن ذلك كان بليغاً فصيحاً ، وضع رسائل تميزت ببلاغتها منطقها السليم ، والواقع أن القديس برنارد كرس كل ما لديه من قوة ومواهب من أجل الدفاع عن تعاليم الكنيسة والقضاء على أى بادرة تنم عن الهرطقة أو الخروج على تعاليم المسيحية . وكان هذا الحماس الزائد للأفكار الدينية القديمة المتزمتة من الأسباب الجوهرية التى أدت إلى قيام الصراع الفكرى بينه وبين زعيم من أكبر زعماء حركة تحرير الفكر الإنسانى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ونعنى به الفيلسوف بطرس أبيلارد .

أما بطرس أبيلارد (١٠٧٩ – ١١٤٢) فهو الشخصية الأخرى التى ساهمت فى بناء النهضة العلمية فى غرب أوروبا فى القرن الثانى عشر ، ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه زعيم نهضة تحرير الفكر فى هذا القرن ، ونعرف أنه فى مستهل حياته نال تعليمه على أيدجى مشاهير المفكرين فى عصره ، ومنهم أنسلم ***Anselm*** (١٠٢٣ – ١١٠٩) المفكر اللاهوتى الكبير ، ويعتبر أبيلارد من أشهر

رجال زمانه فى علم الجدل ، كما أنه صاحب فسلفة الشك والتشكك الشهيرة فى كل شئ ، وكان أبيلارد يثير النقاش فى أى مكان يحل به ، وكثيراً ما ينتهى النقاش بتفوقه على أساتذته بعد أن يبين لهم نقط الضعف فى فلسفتهم ، وقد قام بالتدريس فى مدرسة كاتدرائية نوتردام بباريس ، ومنها ذاعت شهرته فى المنطق والفلسفة واللاهوت ، فالتف حوله المريدين والاتباع يستمعون إليه وينهلون من علمه ، ولم يلبث هذا المفكر أن أتهم بالهرطقة وبعشق تلميذه له ، فأدين فى مجمع سواسون سنة ١١٢٢م الأمر الذى جعله يفر إلى إحدى جهات مقاطعة شامبنى فى فرنسا حيث بنى له كوخاً وكنيسة صغيرة وأخذ يواصل محاضراته وتعليمه وتبعه تلاميذه الذين استمروا ملتفين حوله ينصتون إليه وإلى تعاليمه وصار له من النفوذ ما جعل السلطات الدينية تعفو عنه ، فعاد أبيلارد إلى باريس حيث التقى بالقديس برنارد ودخل معه فى جدل عنيف حاد لدرجة أفزعت الكنيسة التى كانت قد اهتزت فى زمنه بسبب الفساد الذى استشرى فى الجهاز الكنسى البابوى ، ومن ثم حكم عليه البابا إنوسنت الثانى (١١٣٠ – ١١٤٣) بالهرطقة مرة أخرى ، ونتيجة لذلك فر أبيلارد مرة أخرى إلى دير كلونى حيث قضى بقية عمره عاكفاً على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى أن وافته منيته .

لقد دعا أبيلارد إلى استخدام العقل وتطبيقه على جميع الأفكار قائلاً إن الإنسان يجب ألا يؤمن فى شئ قبل فهمه ، وبعد أن كان الإيمان يسبق العقل فيما مضى ، بمعنى أنه لا يصح أن يخضع افيمان للعقل ، وإنما العقل هو الذى يجب أن يخضع للإيمان ، جاء أبيلارد ونادى بأن

الفهم والإدراك يسبقان العقيدة ، وبذلك كانت فلسفته تقوم على الشك ولا يتأتى الوصول إلى الحقيقة إلا عن طريق التشكك والمعارضة .

ومن أهم مؤلفات أبيلارد التى كتبها باللاتينية كتابه المعروف باسم " نعم ولا " *Sic et Non* الذى قدم له بكلمة عن تفسير الكتاب المقدس ، وضمنه فلسفته الشهيرة ، وقد تناول فيه موضوعات خصبة للبحث والمناقشة كما جمع فيه الآيات الواردة فى الكتاب المقدس التى يبدو فيها التناقض وعدم الانسجام بقصد المقارنة ولكن دون أية محاولة من جانبه للتوفيق بينها .

والخلاصة أن أفكار أبيلارد الحرة صارت المحور الذى دارت حوله حركة البعث العلمى الجديدة ، الأمر الذى هيأ الجو لظهور عصر النهضة الذى يعتبر مرحلة تغير وانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، ويكفى للدلالة على تقدم فلسفة أبيلارد أن تلاميذه وصلوا إلى المراكز العليا فى الكنيسة اللاتينية ، وامتدت شهرتها إلى كثير من بلاد الغرب الأوروبى

وهنا نكرر القول أن النهضة العلمية التى ازدهرت فى القرن الثانى عشر برهنت على أن المدارس الديرية والأسقفية صارت عاجزة عن مسايرة التطور فى نظم التعليم واتساع نطاق المعرفة حتى غدت الأحوال مهيئة لظهور التعليم العالى الذى جاء وليد تلك النهضة .

نشأة الجامعات وتطورها :

كانت نهضة القرن الثانى عشر نهضة حقيقية لا يمكن إغفالها خاصة أنها شملت كافة النواحى والأنشطة ، وعلى رأسها أمور العلم والتعليم وبذلك تعتبر تلك النهضة مرحلة فاصلة بين التاريخ الوسيط

بفلسفته ومثله وبين العصر الحديث بحضارته الزاهرة ، وقد أوضحت المدارس الديرية والأسقفية أضيق من أن تتسع للعلوم الجديدة والنشاط الفكرى بغرب أوروبا فالدراسة والمناقشات التى دارت فى تلك المدارس جرت على مستوى عالٍ رفيع منذ أواخر القرن الحادى عشر جعل منها معاهد للتعليم العالى ، وهى التى أطلق عليها الجامعات .

والوقع أن لفظ " جامعة " ***Universitas*** الذى شاع استعماله فى غرب أوروبا العصور الوسطى ، كان يعنى رابطة أو اتحاد بين عدة أفراد سواء فى الأعمال الإدارية أو الدينية أو الصناعية أو فى حرفة من الحرف ذلك أن الناس فى غرب أوربا اتجهوا فى القرن الثانى عشر إلى تنظيم شئونهم فى صورة نقابات أو اتحادات غير أن لفظ جامعة تحو عند نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر حتى أصبح يطلق على اتحادات المشتغلين بالعلم والتعليم من الطلاب والأساتذة وبذلك بدأنا نسمع عن " جامعة الطلبة " بمعنى اتحاد الطلبة ، و " جامعة الأساتذة " بمعنى اتحاد الأساتذة وبمعنى آخر لم يكن يقصد بالجامعة آنذاك المكان أو البينة العلمية وإنما قصد بها الاتحاد الذى يكونه كل من الطلبة والأساتذة لتنظيم شئونهم ومصالحهم .

ومن الثابت أنه وجد فر غرب أوروبا عند نهاية القرن الثانى عشر خمس أو ست جامعات على الأقل هى جامعات سالرنو وبولونيا ورجيو بإيطاليا ، وباريس ومونبيليه بفرنسا ، وأكسفورد بإنجلترا . واهم ما يعنينا من تلك الجامعات هو التحدث عهن جامعتى بولونيا وباريس ، نظراً لأن نشأتهما أعظم ما تمخضت عنه النهضة الأوروبية فى القرن الثانى

عشر بالإضافة إلى أن هاتين الجامعتين هما الشجرة التى تفرعت عنها بقية الجامعات الأخرى فى غرب أوروبا منذ أخريات القرن الثانى عشر فصاعداً .

أما عن جامعة بولونيا فى إيطاليا ، فقد ارتبطت منذ نشأتها بالدراسات القانونية واكتسبت شهرة واسعة فى هذا المجال ويبدو أن الموقع الجغرافى مدينة بولونيا ساهم فى إعطاء تلك الجامعة شهرتها ذلك أنها تقع عند ملتقى الطرق ومفترقها فى شمال إيطاليا مما جعلها مكاناً مناسباً لالتقاء العلماء وطلبة العلم .

ومما يجدر ذكره أن جامعة بولونيا اشتهرت بأنها " جامعة طلبة " إذ ترتب على وجود أعداد غفيرة من طلاب العلم المغتربين لاسيما الوافدين من وراء الألب أن أخذ الطلاب فى تنظيم شئونهم ومصالحهم فكونوا بعض النقابات عرفت باسم نقابة الطلبة أو اتحاد الطلبة ***Universitas Scolarium*** على نفس النظام الذى سارت عليه طوائف العمال وأصحاب الحرف فى العصور الوسطى ، وثمة عوامل كان لها أُر كبير فى نشأة وقيام اتحاد الطلب فى بولونيا منها أن المدن الإيطالية دأبت على منح حقوق المواطنة لأبنائها وحرمان المغتربين من هذه الحقوق ، كما كانت النقابات لمهنية والتجارية قد اكتسبت شرعية فى بولونيا بحيث أَبح ممثلو هذه النقابات مستقلين فى نفوذهم عن حكام المدينة ، وفى مثل هذه الأوضاع صارت عضوية النقابة أمراً ضرورياً لاحتفاظ الفرد بسلامته وحقوقه ، ولذلك أدرك الطلاب المغتربون ضرورة انتظامهم فى نقابة أو اتحاد يحمى مصالحهم ضد أية أخطار من الممكن أن يتعرضوا بها . هذا وقد اقتصرت عضوية هذه النقابة على الطلاب المغتربين وحدهم ولم

تنطبق على الطلاب من أبناء مدينة بولونيا أو أساتذة الجامعة ، ولم تعترض السلطات الحاكمة على هذا الوضع الخاص باتحادات الطلبة لما يترتب على وجود أعداد غفيرة من الطلاب من انتعاش اقتصادى فى المدينة ، وما يسببه رحيلهم عنها من كساد .

وتوصف جامعة بولونيا بأنها " جامعة طلبة " لأن اتحادات الطلبة فيها استطاعت أن تجمع فى قبضتها السيطرة التامة على الجامعة فهى التى تختار الأساتذة وتدفع رواتبهم وتتوقف عن الدفع إذا لم تعد قادرة حتى وصل الأساتذة فى كثير من الأحيان إلى وضع مزر وسيئ وأكثر من ذلك أن اتحادات الطلبة فى بولونيا أجبرت الأساتذة على أن يقسموا يمين الولاء والطاعة لرؤساء هذه الاتحادات وهم من الطلبة مما جعل خضوع الأساتذة للطلبة يتخذ صفة قانونية عند نهاية القرن الثالث عشر ووصل الأمر باتحادات الطلبة أن جرى فرض غرامة على الأستاذ إذا تأخر عن محاضرته أو تجاوز الوقت المحدد للانصراف ، أو فشل فى إنهاء ما قررت الجامعة تدريسه من النصوص القانونية فى الوقت المحدد أو ترك نصاً صعباً دون أن يشرحه ووقع على لجنة من الطلاب اسمها " لجنة تحذير الأساتذة " مهمة مراقبة سلوك الأستاذ ، وإحاطة مدير جامعة بولونيا ***Rector*** – وهو رئيس اتحاد طلبتها – علماً بكل المخالفات التى ارتكبها ، وعلى الرغم من أن اتحاد الطلبة بالجامعة قد سيطر سيطرة تامة على الأساتذة إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن الطلبة فى بولونيا لم يحاولوا على الإطلاق التدخل فى توجيه النشاط العلمى بالجامعة الذى كان من صميم اختصاص الأساتذة .

أما عن جامعة باريس ، وهى الجامعة التى صارت نموذجاً لبقية الجامعات فى شمال أوروبا وغربها ، فقد اختلفت فى طابعها ونظامها تمام الاختلاف عن جامعة بولونيا ، فجامعة باريس اتجهت فى دراساتها نحو اللاهوت والدراسات الدينية والمشاكل الفلسفية . ومن الثابت أن تلك الجامعة نشأت داخل نطاق أسقفية باريس ومدرستها ، ولهذا اتخذت منذ البداية طابعاً دينياً لاهوتياً فلسفياً واضحاً ، كما أنها ارتبطت بالفيلسوف بطرس أبيلارد الذى أثار الحركة الجدلية الحرة ، ومكن لباريس أن تصير مركزاً للفكر الحر والبحث العلمى . ولقد اكتسبت مدينة باريس شهرة واسعة منذ أيام أبيلارد وكانت النتيجة أن ازداد عدد الدارسين والمدرسين بها ، وانتهى الأمر بقيام رابطة أو اتحاد أو نقابة أو جامعة لتنظيم أمور الأساتذة وتحديد علاقاتهم ببعضهم البعض من جهة وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط بهم من جهة أخرى ، ولما كانت جامعة باريس قد نشأت من مدرسة الكاتدرائية (كاتدرائية نوتردام) فلا ريب أن أمين الكاتدرائية تمتع بنفوذ هائل على الأساتذة فى السنوات الأولى لمولد الجامعة حتى صار له وحده الحق فى منح الترخيص للأساتذة لمباشرة مهنة التدريس ، كما كان له وحده الحق فى حرمان من يشاء من الأساتذة المعترف بهم من مزاولة هذه المهنة ولم يكن هذا ليتمشى مع وجود نقابة للأساتذة هدفها حماية أعضائها من استبداد أمين ، والعمل على الحد من نفوذه الواسع ما لبس أن اشتد الصراع بين الأساتذة وأمين الكاتدرائية وفى هذا الصراع الطويل اختارت البابوية أن تقف إلى جانب قوة المستقبل فأيدت الأساتذة ووافقت على الحد من سيطرة أمين الكاتدرائية على الجامعة الأمر الذى أدى إلى تضاؤل سلطته تدريجياً حتى اختفت فى أواخر القرن الثالث عشر ، واستراحت الجامعة من تعسفه ومضايقاته .

بيد أن جامعة باريس تعرضت لضغط جديد كان مصدره هذه المرة الملكية الفرنسية التى أخت تتدخل فى شئون الجامعة واختصاصاتها بعد أن كانت فيما مضى من أشد مناصريها ، واستمر هذا التدخل يأخذ أشكالاً عدة حتى صدر فى أواسط القرن الخامس عشر أمر ملكى بخضوع الجامعة لأحكام برلمان باريس ، وكانت الملكية تستهدف من وراء ذلك الحد من الامتيازات والحقوق العديدة التى كانت الجامعة تتمتع بها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بعد أن وجدت فى ذلك خراً يتهددها ، واخذ هذا التدخل يزداد مع الوقت حتى أواخر القرن الخامس عشر ، إذ قضى ملك فرنسا لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) على ما تبقى لها من نفوذ عندما حرم على رجالها الاشتغال بالسياسة ، وأمر بأن يشترك مندوب ملكى فى عملية انتخاب مدير الجامعة .

وسرعان ما انتشرت الجامعات فى شمال أوروبا وغربها مستمدة نظمها من جامعة باريس ففى إنجلترا ظهرت جامعة أكسفور فى القرن الثانى عشر وهى تعتبر من الناحية الواقعية وليدة جامعة باريس إذ حدث أن ساءت العلاقات بين هنرى الثانى ملك إنجلترا (١١٥٤ –١١٨٩) وبين لويس السابع ملك فرنسا ، وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا فأصدر هنرى قراره بعودة الطلاب الإنجليز إلى بلادهم وإلا صودرت أملاكهم ، وقد ترتب على ذلك أن عاد عدد ضخم من الطلاب إلى بلادهم حوالى سنة ١١٦٨م أما جامعة كامبردج فقد تأسست على أيدى بعض الطلبة والأساتذة الذين هاجروا إليها سنة ١٢٠٩ من جامعة أكسفور بسبب الانقسامات والخلافات الدينية فى كلياتها .

مناهج الدراسة والنظم الجامعية :

تميزت كل جامعة من جامعات أوروبا فى العصور الوسطى بنوع خاص من الدراسات التى تتفق مع الظروف والأوضاع والتقاليد المحيطة بالمنطقة التى نشأت بها مع تخصصات العلماء الذين حاضروا بها ، فمثلاً تفوقت باريس على غيرها فى العلوم الفلسفية بينما تفوق كل من مونبلييه وسالرنو فى الدراسات الطبية ، وبرزت بولونيا فى القانون الرومانى بحكم مكانها فى إيطاليا مقر القياصرة الرومان وموطن الحضارة الرومانية وعلى رأسها القانون ، على أن ذلك ليس معناه أن تلك الجامعات قد أهملت بقية الدراسات المختلفة ، وفى الحقيقة حاولت كل جامعة أن تصل إلى المستوى العالى المنشود بأن تجمع إليها أقساماً للفنون الحرة واللاهوت والقانون الكنسى والرومانى والطب والرياضيات والعلوم واللغات الشرقية – اليونانية والعبرية والعربية – والموسيقى .

ولم يكن للجامعات أول الأمر مبان خاص بها ، وإنما كانت كل جامعة تستأجر لها دوراً خاصاً لإلقاء المحاضرات بها ، وربما حاضر الأستاذ فى منزله ، وقد واجه الأساتذة صعوبات جمة فى سبيل العثور على غرفة أو مكان يلقون فيه محاضراتهم ، ولم يكن هناك جدول ثابت للمحاضرات فى جامعات العصور الوسط " إذا كان من الصعب تحديد الجدول لارتباط الدراسة بمواعيد دق أجراس الكنائس ، ولم يكن الطالب ملزماً بحضور أكثر من ثلاثة أيام فى الأسبوع ويتغيب باقى الأيام ، وكان على الطلبة أن يقوموا بالتبليغ عن الأستاذ غير المواظب على عمله ، وهنا ينبغى أن نكرر القول أن طلاب جامعة بولونيا استطاعوا فرض قيود مشددة على الأساتذة ، لأن تنظيم الجامعة وضع السلطة فى أيدى الطلبة

أما فى جامعة باريس فقد وضع لها نظام يكفل حسن تأدية الأساتذة لمهامهم فى دقة وأمانة ، فضلاً عن أن النظام قام على أساس جعل السلطة فى أيدى الأساتذة .

وكانت المحاضرات تلقى على الطلبة باللغة اللاتينية فيجلس الأستاذ على مقعد وسط الطلبة الذين يجلسون أثناء المحاضرة على وسائد من القش مفروشة على الأرض حتى لا تتسرب الكبرياء إلى نفوسهم ، واستمر الوضع على ذلك حتى أخذ الطلبة يجلسون على دكك أو أدراج فى القرن الخامس عشر ، واستمرت المحاضرة الواحدة أحياناً ساعتين أو ثلاث دون انقطاع ودون مبالاة براحة الطالب البدينة أو الذهنية ، وحرم على الأستاذ تحريماً بالغاً اتباع الطريقة الإملائية فى المحاضرات حتى يعتمدوا على المناقشة والمحادثة ، وإذا تصورنا الكتب كلها كانت خطية ونادرة فى العصور الوسطى ، أدركنا أن الطالب كان يعتمد على قوة ذاكرته إلى حد بعيد .

وكان نظام الامتحان قائماً على المناقشة العلنية فى رسالة يكتبها الطالب باللغة اللاتينية ، وكانت الدرجات العلمية التى تمنحها الجامعة للطالب هى الإجازة التى تعرف باسم الليسانس التى تتيح لحاملها حق ممارسة التدريس فى المدارس ، وهناك أيضاً الإجازات العالية التى تعطى لحاملها الحق فى المحاضرة بالكلية ، وأولى الشهادات العالية هى درجة الماجستير والثانية هى درجة الدكتوراه فى الآداب أو القانون أو اللاهوت ، ومهما يكن من أمر فإن درجة الدكتوراه كانت لا تنمح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين على أن يؤدى الطالب امتحانين للحصول على هذه الدرجة أحدهما خاص والآخر عام علنى ، وبعد ذلك يمنح الدرجة فى

الكاتدرائية وارتبط بمنح الدرجات العلمية السابقة بعض التقاليد الجامعية فجرت عملية التخرج من الجامعة على قواعد أشبه بما كان متبعاً فى نظام الفروسية فى العصور الوسطى ، فيتم ذلك حيث يحضر السيد الإقطاعى ويربت بسيفه على كتف الشاب المؤهل للفروسية إعلاناً منه بأنه صار فارساً ، أما فى الجامعة فقد جرت العادة على أن يعد الخريج من الجامعة وليمة يدعو إليها زملاءه وأصدقاءه بعد منحه الدرجة العلمية .

على أن مشكلة توفير المساكن المناسبة كانت إحدى المشاكل الأساسية التى واجهت الطلبة المغتربين فى المدن التى توجد بها جامعات ، وقد تغلب الطلبة على هذه المشكلة باشتراك كل مجموعة من الطلاب فى استئجار نزل خاص بهم . ولكن هذه المشكلة لم تجد لها حلاً عند الطلبة الفقراء الذين لم يستطيعوا المساهمة مع غيرهم فى استئجار نزل ، ولمساعدة هذا الفريق من الطلبة فكر بعض الخيرين فى إنشاء ملاجئ أو نزل لإيواء الطلاب الجامعيين الفقراء أطلق عليها اسم كليات أو مجمعات ***Colleges*** واشتهر من تلك الكليات السكنية كلية السوربون ***La Sorbonne*** التى أقامها ربورت السوربونى فى باريس سنة ١٢٥٧ لإيواء الطلاب الفقراء وإطعامهم مقابل أجز زهيد ، وسار على هذا النهج العديد من دول أوروبا الغربية فأنشئت أول كلية فى أكسفورد لإيواء الطلبة الفقراء ومساعدتهم سنة ١٢٦٣ ، ولم تلبث تلك الكليات أن تطورت فأخذت فى التحول من مجرد نزل لإيواء الطلاب إلى معاهد عليا للدراسة تابعة للجامعة لها أساتذتها وطلابها ونظمها ، وصارت أسماؤها إلى اليوم علماً من أعلام الدراسات الجامعية فى أوروبا .

وأخيراً ينبغى القول إن جامعة العصور الوسطى لم تظهر من العدم إلى الوجود طفرة واحدة ، وإنما كانت هناك عوامل مهدت لها ترجع إلى قرون طويلة قبل نشأتها ، وقد بدأت حياتها متواضعة وأخذت فى النمو تدريجياً إلى أن كبرت ونضجت وبرزت شهرتها بفضل أساتذة كبار حاضروا بها إلى جانب آلاف مؤلفة من الطلبة اجتمعوا لكى ينهلوا على أيدى أولئك الأساتذة مختلف المعارف والعلوم ، ومما لاشك فيه أن جامعات أوروبا فى العصور الوسطى عبرت عما وصلت إليه أوروبا من نشاط فى ميدان الفكر والثقافة والعلوم . وانبعثت من الجامعات ومضات مشرقة بددت ظلمة العصور الوسطى ، وأمدت المجتمع بفئة ناضجة من المثقفين والمتعلمين ، الأمر الذى جعل الجامعات تقف على قدم المساواة مع البابوية والإمبراطورية ، فى توجيه أحداث المجتمع الأوروبى الغربى فى العصر الوسيط ، بل أنها تركت أثراً عميقاً فى كثير من نواحى الحياة الأوروبية فى العصور الحديثة . (٥)

الخطابات التى يرسلها الطلبة إلى آبائهم :

إن الخطابات التى أرسلها الطلبة فى العصور الوسطى إلى آبائهم أو الأوصياء عليهم بها مسحة حديثة لافتة للنظر :

" إننى أحيطكم علماً أنى أدرس فى جامعة أكسفورد بكل كد واجتهاد ، بيد أن مسألة المال تقف حجر عثرة فى طريق مواصلتى الدراسة بشكل خطير إذ قد مضى شهران على نفاذ ما كنتم قد أرسلتموه إلى أن أسعار المدينة مرتفعة ولا قدرة لى على شراء سلعها ، وعلى أن أستأجر غرفة وأن أشترى الضروريات وأن أتزود بأشياء أخرى كثيرة لا أستكطيع أن أذكرها بالتفصيل حالياً ، ولذلك أتوسل إلى حنانكم الأبوى بكل احترام أن

تساعدونى بعون الله ، حتى أتمكن من إكمال ما بدأته خير بداية ، إذ أنه لابد وأنكم تعلموا أنه بدون سيريز *Ceres* وباخوس *Bacchus* يموت أبولو *Appllo* تدريجياً .

ذكر بعض الكتاب أن هناك ثلاث قوى كيفت المجتمع الغربى فى العصور الوسطى ، وهى الكنيسة والإمبراطورية والجامعة ، فالروح الدينية وجدت فى البابوية زعيمة لها ، كما أن السلطة العلمانية بلغت ذروة عظمتها فى الإمبراطورية المقدسة ، كما نبعت من الجامعة جداول المعرفة التى روت المجتمع الغربى فى الشطر المتأخر من العصور الوسطى ، خاصة بعد أن تزداد عدد الجامعات هناك حتى بلغ أكثر من ثمانية جامعة فى أخريات هذه العصور ، ولكن يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن الجامعات إذا كانت قد حققت نشاطاً حضارياً وفكرياً ضخماً فإن الفصل فى نشاطها يرجع لنهضة الثانى عشر التى جاء فيها مولد أولى الجامعات . (٧)

نقاط ختامية فى التعليم والمدارس والجامعات :

يتضح مما سلف أن الجامعة فى العصور الوسطى لم تظهر من العدم إلى الوجود مرة واحدة ، وإنما قامت فى بداية حياتها متواضعة بسيطة ، ثم نمت وكبرت وتوطدت أركانها بفضل أساتذتها واجتماع الألوف المؤلفة من الطلاب فيها ، قبل أن تعترف بوجودها السلطات الدينية والزمنية ، وقبل أن يتوفر لها من الهبات والعطايا من أهل البر والإحسان ومن محبى العلم ما يتضمن استقرارها وتهيئة الأماكن المناسبة لها .

وجدير بالذكر إن الجامعة المعنوية وجدت فى الغرب الأوروبى فى أخريات العصر الوسيط قبل الجامعة المادية ، فلم يكن اسم الجامعة فى بداية الأمر مقروناً بالمبانى الفخمة ذات القباب والأبراج العالية ، ولم يكن

مقروناً بما احتوته من فراش وأثاث وثير ، بل كان كيانها موقوفاً على سعة علم المعلمين بها وقيمة محاضراتها التى طالما كانت تلقى فى الخلاء أو فى أفنية الكنائس أو فى سراديبها .

وهناك مسألة هامة من الضرورى الإشارة إليها فيما يتعلق بموضوع نشأة الجامعات الأوروبية هى ما كان للعرب من فضل واضح فى تنشيط الحركة الفكرية والجامعية فى أوروبا ، فمما لاشك فيه أن قسطاً كبيراً من فلسفة الإغريق تسرب إلى أوروبا وقتئذ عن طريق عرب الأندلس كما انتقلت الفلسفة العربية وكثر من العلوم الإسلامية إلى الغرب عن طريق اتصال الإيطاليين بالعرب فى جزيرة صقلية وفى جنوب إيطاليا ، ويلاحظ أن أول ترجمة لاتينية لفلسفة أرسطو الذى اعتبره كتاب العصور الوسطى معلمهم الأكبر ، جاءت عن طريق النصوص العربية الشائعة بين المسلمين تلك النصوص التى يرجع عهدها إلى صدر العصر العباس الذى بدأت فيه حركة الترجمة المشهورة ببغداد حين نقل الكتاب العرب كثيراً من تلك النصوص الهامة من اللغة الإغريقية إلى العربية ، وقد وصلت تلك النصوص مع العرب إلى المغرب والأندلس وانتشرت من هناك فى أوروبا حيث ترجمت تلك النصوص الإغريقية عن الترجمة العربية فى وقت كانت فيه الأصول الإغريقية قد فقدت .

وأخيراً لا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر أن أقدام الجامعات فى العصور الوسطى ظهرت فى الشرق قبل ظهورها فى الغرب بوقت غير قصير ، عندما افتتح قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيراوانى دراسة فقه الشيعة بالجامع الأزهر فى أكتوبر سنة ٩٧٥م فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى ، ذلك الجامع الذى أُبح مركزاً لدراسة الفقه والعلوم

العربية فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة ، وكانت نشأته قبل أن تظهر الجامعات الأوروبية إلى حيز الوجود بحوالى قرن ونصف من الزمان .(٨)

هوامش الباب الثانى
ظهور وانتشار المسيحية

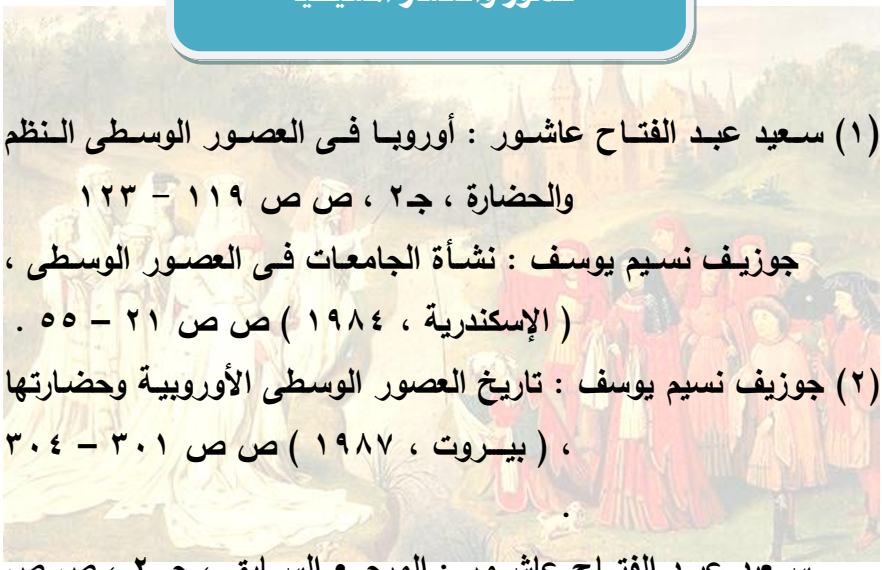

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى النظم والحضارة ، جـ٢ ، ص ص ١١٩ - ١٢٣

جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ١٩٨٤) ص ص ٢١ – ٥٥ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، (بيروت ، ١٩٨٧) ص ص ٣٠١ – ٣٠٤ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ص ١٢٣ – ١٢٧

جوزيف نسيم يوسف : نشأت الجامعات فى العصور الوسطى ، ص ص ٥٧ – ٨٣ .

(٣) محمود محمد الحويرى : دراسات فى حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ص ص ١٨١ – ١٨٥ .

سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور : أوروبـا العصـور الوسـطى ، جـ٢ ، ص ص ١٢٧ – ١٣٢ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، محمد أنيس : النهضات الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحداثة ، (القاهرة ، ١٩٥٦) ، ص ص ١٠٠ – ١٠٢ .

محمـود سـعيد عمـران : حضـارة أوروبـا فـى العصـور الوسـطى ، ص ص ٢١٦ – ٢١٧ .

جوزيـف نسـيم يوسـف : نشـأت الجامعـات فـى العصـور الوسـطى ، ص ص ٨٥ – ١١٧ .

(٥) محمود محمد الحويرى : دراسات فى حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٨٥ .

جوزيـف نسـيم يوسـف : تـاريخ العصـور الوسـطى الأوروبيـة وحضارتها ، ص ص ٣٠٤ – ٣٣٠ .

جوزيـف نسـيم يوسـف : نشـأت الجامعـات فـى العصـور الوسـطى ، ص ص ٨٥ – ١٥١ .

محمـود سـعيد عمـران : حضـارة أوروبـا فـى العصـور الوسـطى ، ص ص ٢٦٧ – ٢٨١ .

سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور : أوروبـا العصـور الوسـطى ، جـ٢ ، ص ص ١٣٢ – ١٤٧ .

(٦) هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٥٣.

(٧) محمود سعيد عمران : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٨١.

(٨) جوزيـف نسـيم يوسـف : العصـور الوسـطى الأوروبيـة وحضـارتها ، ص ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

الباب الثالث
الإقطاع فى أوربا العصور الوسطى

مصطلح إقطاع :

يبـدو أن الكلمـة الإنجليزيـة الإقطـاع Feudalism وكـذلك الكلمـة المرادفة لها فى اللغة الفرنسية لم يكن لهما وجود من ناحية الاستعمال حتى أواخر القرن الثامن عشر بعد إن وجهت ثورة ٧٨٩ م الاهتمام العلمى إلى بعض الخصائص المبارزة لنظام الحكم فى العهد السابق على قيام الثورة . ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمة " إقطاع " و " النظام الإقطاعى "

وما شابه ذلك جزءاً من المفردات التى استخدمها المؤرخ العادى ، لأن مثل تلك التعبيرات كانت متداولة عندما يريد الإشارة إلى العلاقة المعقدة فى العصور المنصرمة ، وعلى أية حال فقد قام الكتاب فى العصر الحديث باللجوء إلى استعمال كلمة إقطاع والبعض الآخر يقول النظامى الإقطاعى . وظل الوصف غامضاً بالنسبة لكثير من الكتاب إلى حد بعيد ، وقد أدى ذلك الغموض إلى الكشف عن أطوار الإقطاع فى تاريخ كثير من الشعوب المختلفة بداية من قدماء المصريين حتى الوصول إلى الشعب اليابانى فى القرن الماضى .

على أن المقارنة الاجتماعية لهذا النوع ليس لها مكان فى الوصف التالى مهما كانت مفيدة ، والهدف الحالى هو تفسير المؤسسات الاجتماعية التى جعلت رجال العصور الوسطى يبتكرون مصطلح " إقطاعى " بقدر ما تسمح المصادر بذلك . [١]

نشأة النظام الإقطاعى ونموه :

ظهرت بذور النظام الإقطاعى فى أوربا العصور الوسطى فى مملكة الفرنجة الميروفنجين فى القرن الثامن الميلادى . ففى تلك الأثناء طفحت تلك المملكة بالفوضى والاضطراب ، ولعل السبب الأساسى لهذه الفوضى يرجع إلى ما وقع من العداوات بين الأسرات الحاكمة ، والتى نبعت من العرف الذى يقضى بأن يقتسم الإرث أولاد الملك عند وفاته ، فنشأت بذلك ممالك أو ستراسيا ونوستريا وبرجنديا ، يضاف إلى هذا العامل ما حدث من المنازعات بين الفئات الأرستقراطية فى الأقاليم ، من اجل السلطة والنفوذ ، وزاد الأمر سوءاً أن الحكومة لم يكن بوسعها أن توطد الأمن والسلام ، وتكفل الطمأنينة للسكان نظراً لأن النظام الإدارى كان بسيطاً وساذجاً ، ولم يكن للموظفين من الدراية والخبرة بأعمال الحكومة ، ما يصح الاطمئنان إليهم ، ونتيجة لذلك لجأ الأهالى إلى أقرب قوة محلية تستطيع حمايتهم والدفاع عنهم .

والواقع أن تاريخ دولة الفرنجة فى غاليا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التى يمكن تسميتها إقطاعية ، والتى تعتبر جذوراً للنظام الإقطاعى ، ذلك أن محاربى الفرنجة كانوا من المشاة بوجه عام وإن اعتاد الملوك والنبلاء أن يمتطوا صهوة جيادهم فى وقت الحرب ، واستمر الوضع على ذلك حتى حاول سارل مارتل أن يتوسع فى نظام الفرسان ليجعل جيشه قوة فعالة فى ميدان الحرب ، وعندئذ اكتشف أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج إليه الفارس من حصان ودرع وسلاح ، فضلاً عن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال . ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة

فى القرن الثامن بحيث لا تفى بكل هذه المطالب ، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر فسجل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين التبعية والولاء ، ثم أعطى كلاً منهم إقطاعاً يكفى لسد مطالب معيشته على أن يبقى هذا الإقطاع فى حوزته مادام يقوم بالخدمة العسكرية ، والمهم فى أمر هذا التنظيم الذى وضعه شال مارتل لجيشه والذى سار عليه بيبين القصير ثم شارلمان ، أنه قام على أساس إقطاعى واضح .

ونظراً لأن الكنيسة فى مملكة الفرنجة امتلكت مساحات كبيرة من الأراضى يتولى زراعتها مستأجرون أرغمها شارل مارتل على أن تمنح أراضيها إقطاعات لجنده الذين حلفوا يمين الإخلاص وبذلوا له الولاء ووعدوا بأن يخدموه طوال حياته ، ونظراً لأن الدولة لازالت تهددها الأخطار الخارجية لم تستطيع الكنيسة أن تسترد ما لها من الأراضى ، بل بقيت فى أيدى الحاكم ، سواء كان حاجب البلاط أو الملك يمنحها لأتباعه لاستغلالها مدى الحياة ولا يؤدى التابع خراجاً بل يؤدى ما هو مقرر عليه من خدمة .

وأسهمت عوامل عديدة فى نمو النظام الإقطاعى وانتشاره فى غرب أوروبا فى القرن التاسع الميلادى وأول هذه العوامل الحروب العنيفة التى قامت بين لويس التقى (ت ٨٤٠م) – ابن شارلمان – وخلفائه كانت وحدها كافية لإثارة الفوضى والاضطرابات الداخلية ، ثم جاءت الأخطار الخارجية لتزيد من الفوضى والاضطراب الشامل ، إذا أغار الفيكنج المتبربرون على سواحل فرنسا وتعرضت البلاد لغارات المجريين القادمين من سهول المجر ، بينما احتل المسلمون دلتا نهر الرون ، ولم تجد القرى والمدن والمؤسسات الدينية حكومة قادرة على حفظ الأمن وحماية البلاد من الأعداء فى الخارج .

وفـى هـذه الأوضـاع الصـعبة أخـذ الملـوك وكبـار الأمـراء والنـبلاء وملاك الأراضى يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم فى التغلب على ما واجههم من أخطار ، وبمعنى آخر لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجـة أسرته إلـى منـح هذه الزيـادة علـى هيئـة إقطاعـات لأتباعـه لـه ، أمـا صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم الفوضى الشاملة التى تعرض لها الغرب الأوروبى فى القرن التاسع إلى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الدفاع عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى مجاور لـه ، ثم يعود فيتسلمها منه كإقطاع ، وبذلك يصبح فصلاص أو تابعاً إقطاعياً لـه ، وكان يحتفل عادة بقيام علاقة إقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط فيركع الفصل أمام سيده الإقطاعى ويضع يده بين يديه ، ثم يقسم أن يظل تابعـاً أمينـاً لـه ويـؤدى كافـة الخـدمات والالتزامـات الإقطاعيـة المتنوعـة المفروضة على الإقطاع ويسمى هذا القسم " يمين الإخلاص " ومن أيمان الإخلاص التى ترجع إلى عصر شالرلمان تلك التى أخذها شارلمان سنة ٨٠٢م على رعاياه ونصها : " أعد أن أكون فى إخلاصى للسيد شارل أتقى الأباطرة وابن الملك بيبين والملكة برتا ، مثلما ينبغى على التابع أن يكون لسيده فى المحافظة على مملكته وحقوقه ، وسوف أوفى بهذه اليمين منذئذ بفضل الله خالق السماوات والأرض والمقدسات الدينية " . وبعد ذلك يناول السيد الإقطاعى تابعه حفنة من التراب إشارة إلى أنه سلمه الإقطاع فعلاً ، كمـا يسـلم لفصـله علمـاً وعكـازاً وبـراءة تثبـت أوصـاف الأرض الممنوحـة ومساحتها وتسمى هذه العملية التقليد Investitura .

وفـى القـرن العاشـر المـيلادى أخـذ التنظـيم الإقطـاعى فـى الغـرب الأوروبى فى القرن العاشر الميلادى صورة الهرم الإقطاعى اتخذ الملك قمة الهرم باعتباره سيد البلاد ، ثم تلاه أتباعه المباشرون الذين لم يكونوا إلا فئة

قليلة من الدوقات والكونتات ، ولهؤلاء بدورهم أتباع ثم يتلو هذه الفئة أتباع أتباع الأتباع ، وفى أسفل الهرم استقر الفارس الذى توافر له من الأرض والعمل ما يكفل العيش والغذاء له ولأسرته وخيله ، وهنا نلاحظ أنه لم يكن يقلل من شأن الفرد أن يصير فصلاً لغيره لأن هذا الفصل كان بدوره سيداً لمن هو أصغر منه فى الدرجة ، كذلك فإن هذه التبعية الإقطاعية تعنى أن صاحبها صار عضواً فى طبقة المحاربين التى اتصف أعضاؤها بالشجاعة والكرم والمروءة ، وهى الصفات التى عرف بها فرسان العصور الوسطى .

وقد بلغ النظام الإقطاعى دور النضج والكمال فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر عندما تلاشت الحكومات المركزية فى الغرب الأوروبى ، وعندما تحول ولاء الجماعات من تلك الحكومات إلى بعض السادة المحليين الذين أسسوا أسرات إقطاعية كبيرة ترجع أصولها إلى عصور النمو الإقطاعى ، وعندما أصبح امتلاك الأرض مقترناً بحق الحكم للسيد الإقطاعى فكان أن نشأت بين السيد والتابع علاقة قوامها جملة من التعهدات والالتزامات المتبادلة بينهما ، تلك العلاقة التى أصبحت القاعدة التى سارت على مقتضاها أمور الحكم والأمن التى تتطلبها الحياة فى ذلك المجتمع الجديد والخلاصة أن الحكومة المحلية حلت محل الحكومة الملكية المركزية وأمست الحكومة السائدة فى طول البلاد وعرضها . وقد وصف أحد المؤرخين الفرنسيين المحدثين ويدعى جيرارد Guerard المجتمع الإقطاعى فى دور نضجه وتمامه ، فقال : " إن الأرض كانت أساس المجتمع ، ومن كان يمتلك أرضاً صارت له بالتبعية أحقية فى السلطة " . (٢)

التشريع الإقطاعى :

كان للبارون جميع الحقوق القضائية في إقطاعه ، ولا يستطيع الملك أن يتدخل في شؤون الإقطاعية دون موافقة البارون ، كما كان البارون بدوره لا يستطيع أن يتدخل في أرض تابع لـه دون موافقة هذا التابع . ومن هنا نشأت جميع تشريعات الإقطاع ، وعلى ذلك فالتابع كان من حقه التشريع ، وللبارون أيضاً ، والملك ، إذا ما وافق البارون والتابع على تشريعات الملك ، أو وافق التابع على تشريعات البارون . واستناداً إلى هذا المبدأ العام قامت جميع التشريعات الإقطاعية الخارجة عن صميم سلطة التابع في صورة قانون يصدر عن محكمة السيد الأعلى بموافقة أتباعه صراحة أو ضمناً ، ويلاحظ أن الهيئات التشريعية لم تكن من الناحية التاريخية وليدة اجتماعات إقطاعيـــة فحســـب ، بـــل كانـــت بقايـــا مجـــالس شـــعبية أقدم منها .

وكان العرف والقانون في نظام الحكم الإقطاعي شيئاً واحد ، وعندما تعقد المحكمة وكاد قضاتها عادة من الأميين وثارت قضية ما ووجب على القضاة تحديد نرع العقوبة يسأل القضاة أكبر الأعضاء سناً عما اتبع في مثل هده الحالة من قبل ، فان وجد مثال لذلك طبقه القضاة ، وفي حالة عدم وجود سابقة استمع القضاة لأوامر الملك أو الشريف ولهم أن يوافقوا عليها أو يعترضوا ، وليس معنى ذلك خلو أوروبا العصور الوسطى من القوانين فقد كانت بعض الأماكن تطبق القوانين الرومانية الموروثة مثلما حدث فى جنوب فرنسا .

وفي شمال فرنسا حيث كان الفرنجة وذروة الإقطاع سارت شرائع الفرنجة القديمة . وتطلب توحيد القوانين في دولة ما صراع كبير بين

الطبقات حتى توصلت إنجلترا على سبيل المثالى في عام ١٢٩٥ م عندما عقد البرلمان المثالي وقرر مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً .

ولما كانت الأرض عماد النظام الإقطاعي ، فقد كان القانون الإقطاعي قاسياً في عقاب من يعتدون على حقوق هذه الأرض . ومن هذه العقوبات ما كان في ألمانيا ما ينص على عقاب من يزيل لحاء إحدى أشجار الصفصاف التي تمسك أحد الجسور ، بشق بطنه ونزع أمعاءه ووضعها مكان اللحاء ، وظل في وستفاليا حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي قانوناً يقضي بان يدفن في الأرض كل من يزيل أحد معالم حدود الأرض ويجرى حرث الأرض وللرجل الدفين إنقاذ نفسه إذا أمكن .

وكانت محاكم القرى تنظر في القضايا التي تقام بين مستأجر وآخر ، أو بين السيد الإقطاعي والمستأجر . أما القضايا التي كانت تقع بين السيد الإقطاعي وتابع له (فصل) أو بين سيد إقطاعي وأخر فقد كانت تعرض على محلفين لا يقلون منزلة عن مقدم الشكوى . وإذا ما جري استئناف قضية فكانت تنظر أمام محكمة الملك المكونة من الأعيان . وإذا ما خسر أحد الشاكين قضيته فكان يعاقب بنفس العقوبة التى كان من المفروض أن تقع على الخصم إذا ما كسب القضية . أما القضايا الخاصة برجال الدين فكانت تنظر في محاكم الأسقفيات أو محاكم الأديرة .

وتعددت العقوبات في المجتمع وكانت قاسية كقسوة الإقطاع ونظمه فكان منها التحكيم الإلهى والاقتتال أو المبارزة والسجن والصلب والرجم والجلوس على كرسى الاعتراف والعمل بالسخرة فى السفن وبتر الأعضاء والتفى وقطع الرأس .

وكان التحكيم الإلهى من العقوبات التى استمرت طوال عهد الإقطاع تقريباً ومن التحكيم الإلهى مرور المتهم وسط كتلة من النيران فإن مر بسلام كان بريئاً ، أو يربط المتهم فى كرسى ويلقى به فى أحد الأنهار فإن نجا وخلص نفسه كان بريئاً واستجد الاختبار بالحديد المحمى للمارقين على الدين فإذا أمسك المتهم بقطعة من الحديد المحمى وأصيب كان متهماً ويعاقب بالحرق ، ولكن الناس كرهت مثل هذه العقوبة وبموجب قرارات مجلى اللاتيران الكنسى Lateran Council الذى عقد فى روما عام ١٢١٥م تحت رئاسة البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ –١٢١٦م) ألغى هذا العقاب وعملت بذلك إنجلترا منذ عام ١٢١٩ ، ولكنه ظل فى أجزاء متفرقة فى أوروبا حتى القرن السادس عشر ومن الذين عوقبوا بهذا التحكيم عام ١٤٩م الراهب والمصلح الدينى الإيطالى سافونارولا Savonarola الذى شن حملة على الفساد الأخلاقى الذى ساد الكنيسة الأوروبية فى عصره .

والاقتتال أو المبارزة عادة جرمانية قديمة ولكنها سادت العصر الإقطاعى وقد ظلت هذه العادة فى إنجلترا النورماندية وكان الاقتتال أو المبارزة تتم بالسيف على ظهور الخيل أو على الأرض ، وربما تكسرت السيوف وقتلت الخيول أو فقداها المتبارزان فيتم الاقتتال بالأيدى ربما حتى الموت ، وفى مرحلة متقدمة من العصور الوسطى فرضت القيود على هذه العادة وذلك بالحصول على موافقة المدعى عليه ، وكان من حق المدعى عليه أن يرفض المبارزة إذا أثبت أنه لم يكن فى مكان الجريمة وقت وقوعها ، ولم يكن بوسع أحد أن يبارز إلا فرداً مساوياً له فى مرتبته ، مع إعفاء المرضى وأصحاب العاهات من المبارزة ، وكان من حق المحكمة المعينة

أن تمنع أية مبارزة ، وجرت العادة أيضاً اختيار البعض لأشخاص غيرهم ليبارزوا بدلاً منهم وكان هؤلاء البدلاء من الأبطال المأجورين .

وكان هؤلاء المأجورين يعلنون بأنهم على استعداد للمبارزة بدلاً من الآخرين بعد إلقاء القفاز على الأرض ولما كان هذا التحول يحط من شأن المحاكمة نفسها لأن شخصية المبارزين أصبح لا علاقة لها بالقضية نفسها فقد حرم البابا أنوسنت الثالث فى مجلس اللاتيران الكنسى هذه العادة التى ترجع فى أصولها إلى حق الناس فى الثأر لأنفسهم بعيداً عن القانون فربما يقتل إنسان فى هذه المبارزة بسبب شئ تافه يستحق الغرامة وإن تعددت شكل الغرامات فى هذه المرحلة .

وكان السجن من العقوبات المتبعة فى العصور الوسطى ورغم أن السجن نفسه كان عذاباً للمسجون لما فى السجن من حشرات ، فقد كان السجن أيضاً يتم لعزل المتخاصمين ، واستخدم الصلب للرجال والنساء وكان الصلب يتم فى أحد الساحات حتى يكون المصلوب هدفاً لسخرية الناس من المذنبين ومن العقوبات المتعلقة بالسخرية أيضاً رجم المجرم بالحجارة أو بالطعام الفاسد إذا كان جرمه أقل .

واستخدم كرس الاعتراف فى بعض الجرائم خاصة للنساء الساقطات أو الثرثارين أو أصحاب الشائعات ، وفى مثل هذه الحالات كان المذنب يربط فى كرسى ثم يلقى بالكرسى والمذنب معاً فى مجرى أحد الأنهار أو البحيرات أو برك الماء فإذا استطاع أن ينجو بنفسه كان بريئاً .

واستفاد مجتمع الإقطاع من المذنبين الأصحاء الأشرار فقد كان يحكم عليهم بالعمل فى السفن حيث يرغمون على التجديف وهم عراة ، فإذا توقفوا كان الجلد بالسوط أو الضرب بالعصا عقاباً لهم .

وكان بتر الأعضاء من العقوبات المألوفة فى المجتمع الإقطاعى ، فكان قطع اليدين أو القدمين أو صلم الأذن أو جدع الأنف أو سمل العينين من الوسائل التى استخدمت لعقاب المجرمين ليكون المجرم عبرة للآخرين .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الكى بالنار برمز ما يدل على اقتراف الفرد على جريمة ما ، كما استخدم حرق اللسان والعقاب بالنفى فى جريمة القتل أو السرقة ، أو الشنق أو قطع الرأس ، أو دفن المذنب حياً . ورغم أن الكنيسة كانت تدعو للرأفة بالمذنبين إلا أنها طبقت العقوبات نفسها إذا وقعت فى دائرتها ، ومن ذلك أن محكمة أحد الأديرة عاقبت سبع نساء بالدفن وهن أحياء مقابل جريمة السرقة ، وكان أشد العقوبات فى العصور الوسطى هى التى أنزلتها الكنيسة بما سمتهم الخارجين على الكنيسة . (٣)

طبقات المجتمع الأوروبى فى ظل النظام الإقطاعى :

بعد أن وضع النظام الإقطاعى بصماته على الغرب الأوربى فى القرن التاسع ، انقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات مختلفة كل الاختلاف : الأولى طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، والثانية طبقة رجال الدين ، والثالثة طبقة الفلاحين . وقد عبر أحد المعاصرين عن طبيعة ذلك المجتمع وطبقاته قائلاً : " بيت الله مثلث : البعض يقاتل ، والبعض يصلى ، والبعض يعمل " ، والمقصود بذلك القول أن قائله شبه العالم بأنه بيت الله ، دلالة على النزعة الدينية وقوتها فى العصور الوسطى ، وأن هذا البيت يتكون من طبقات ثلاثة هى : طبقة المحاربين أو الفرسان ، وطبقة المصلين أو رجال الدين ، وطبقة العاملين فى الأرض من فلاحين وغيرهم . وكان لكل طبقة من الطبقات الثلاثة مكانتها ووظيفتها فى ظل النظام الإقطاعى ، فطبقة النبلاء والفرسان تولت شئون الحكم والحرب ، وطبقة

رجال الدين اهتمت بإرشاد الناس إلى الطريق الصحيح وهدايتهم وتطهيرهم من الآثار ، أما الطبقة الثالثة وهى طبقة الفلاحين ، فهى تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم ، ووظيفتها سد مطالب الطبقتين السابقتين ، وسنتناول الحديث عن كل طبقة على حدة .

أ – طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان :

اشتملت هذه الطبقة على النبلاء والفرسان ، الذين ولدوا أحراراً ، واكتسبوا صفات النبل بالوراثة ، إذ كان من الصعب أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصير صاحب إقطاع ولو كان حراً ، وقد جرت العادة أن ابن النبيل متى بلغ السابعة أو الثامنة من عمره تقرر إرساله بعيداً عن أبويه لكى ينشأ ويتربى فى دار سيد إقطاعى آخر ، هو فى معظم الأحوال السيد الإقطاعى للأب ، أو أقرب الناس إليه فيتعلم الصبى منذئذ الاهتمام بأدوات الحرب الدروع وخيول الحرب ويتدرب عليها فيمارس الحياة الخشنة التى تعتبر خير وسيلة لإعداده فارساً ، فإذا ثبت أنه أضحى مستعداً لأن يتخذ موضعه فى المعركة ويجرى ذلك عادة حين يبلغ العشرين أو الحادية والعشرين من عمره تقر تنصيبه فارساً بأسلحته فى احتفال مهيب ، بأن يركع أمام السيد الإقطاعى ويتلقى ضربة رمزية خفيفة من صفحة السيف تقع على الكتف ، وهذا الإجراء هو المعروف " بتنصيب الفارس " .

وارتبط الفارس Knight بعد تنصيبه بالالتزام بطابع معين فى سلوكه وأخلاقه ، سواء فى حربه أو فى معاملته مع الناس وهو ما اصطلح على تسميته باسم " تقاليد الفروسية " ، فينبغى عليه أن يكون شجاعاً لدرجة المجازفة ، لا يلجأ إلى الخديعة أو الأساليب الدنيئة للتغلب على خصمه وإذا

حدث أن أحرز النصر على خصمه عامله معاملة كريمة ، وعليه التمسك بالوفاء بالعهد واحترام المرأة وحب الشرف والنزاهة .

أما عن الملبس فقد أعطانا مطرز بايو Bayeux Tapestry وأنشودة رولان Song of Roland قسطاً وافراً من المعلومات عن التجهيزات الحربية للفارس فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ففى الجزء الأول من جسم الفارس المحارب ، ألقيناه مرتدياً صدرة مزردة Hauberk بلا أكمام تتألف من حلقات معدنية مركبة على أرضية من الجلد ، وروعى فيها أن تكون مشقوقة طولياً من أسفلها – من أمام وخلف – حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه ، وكان الفارس يضع على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل من الصلب لها قضيب معدنى عمودى فى المقدمة ، يعمل على حمايته من ضربات سيف خصمه ، ثم الدرع وهو مستطيل الشكل ينبغى أن يحمله الفارس فى يده اليسرى ليصد به الطعنات والقذائف فضلاً عن تغطيته من رقبته حتى ركبة ساقه اليسرى ، ولما كانت تلك الملابس ثقيلة فضلاً عن الأسلحة التى استخدمها فى الهجوم مثل السيف والحربة والبلطة ، فإن كل فارس استخدم تابعاً يعرف باسم Esquire اقتصرت مهمته على مساعدة الفارس على ارتداء ملابس الحرب وحمل درعه وسلاحه حتى يمتطى صهوة جواده .

ويمضى الفارس معظم وقته فى القتال ومعالجة الأسلحة وممارسة الصيد ، وفى حياة السلم التى كانت تعنى البطالة بالنسبة للفرسان أقام أمراء الإقطاع معارك غير حقيقية اتخذ اسم المنازلات أو المبارزات Tournements ، وهى مبارزات

استعراضـــية الغـــرض منهـــا تجهيـــز الفرســـان أنفســـهم بالســـلاح ، وحرص المتبارزين على إظهار مهارتهم وبراعتهم دون إراقة قطرة دم واحدة .

واهتم نساء الطبقة الإقطاعية بممارسة الغزل والنسيج والحياكة ، والإشراف العام على دار السيد الإقطاعى ، ومن حق المرأة أن ترث الإقطاع غير أنها لا تديره إلا عن طريق زوجها ، ومع ذلك فإن الزوجة تعتبر سيدة القلعة والإقطاع فى حالة غياب الزوج ، فيتحتم على أتباعه وموظفيه وخدامه أن يطيعوها .

ومـن الواضـح أن كـل فـارس اعتـد بنفسـه واعتـز بشخصـيته ، وحـرص علـى أن يكـون زمـيلاً وحليفـاً للسـيد الإقطـاعى أكثـر منـه مرؤسـاً له ، ونظراً لما تمتع به الفرسان من مكانة هامة فى المجتمع الإقطاعى ، فقد نظروا إلى الملك – وهو قمة الهرم الإقطاعى – على أنه واحد منهم وبعبارة أخرى صار الملك على حد تعبير العصور الوسطى " أول الأسوياء " أو ألو الأنداد المتساويين Primus inter Pares وقد خلقت هذه المساواة روحاً من المودة والإخلاص بين أفراد طبقة الفرسان ، وقضت على كثير من أسباب الفرقة بينهم .

أما الحصون والقلاع التى بناها السادة الإقطاعيون فى غرب أوروبا فهى تلقى الضوء على النظام الإقطاعى ، فمن المعروف أن كلمة Castle الإنجليزية ، ومرادفها Chateau الفرنسية و Burg الألمانية مستقلة من المصطلح الفرنسى القديم Castel ومن اللاتينية Castellum ، أى قلعة أو حصن ، وكانت القلعة الكبيرة فى أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية عبارة عن معسكر مبنى بالحجارة تقيم فيه الحامية ومساحته حوالى ٥٠ فداناً ، فى حين أن القلعة الصغيرة كانت تبلغ مساحتها حوالى عشرة أفدنة وكانت القلعة

فى فترة العصور الوسطى المبكرة عبارة عن قطعة من الأرض تبلغ مساحتها حوالى ٣٠ فداناً يحيط بها خندق ومجموعة من المتاريس وسور من أوتاد خشبية ، وكان هذا البناء يصلح لإقامة السيد الإقطاعى ، وفى نفس الوقت ملاذاً يفر إليه الأهالى هرباً من غارات الفيكنج والمجرمين . وفى القرن العاشر شيدت الحصون من كتل حجرية ضخمة كى تستطيع تحمل معارك الهدم خلال فترات الحصار التى يفرضها الأعداء . وقد اشتمل الطابق الأسفل من الحصن على الآبار ومخازن الطعام والأسلحة فضىً عن المواشى والدواجن ، فى حين أقام السيد الإقطاعى وأسرته فى الطابق الأوسط ، وفى هذا الطابق وجدت قاعة فسيحة للاجتماع بالإضافة إلى غرف صغيرة ، وفى القاعة الفسيحة كان السيد الإقطاعى يجتمع مع أفصاله للنظر فى أحوالهم أو التشاور من أجل مشروع حربى .

أما السهرات التى كان السيد الإقطاعى يقضيها بعيداً عن الحرب وشئون الحكم والإدارة ، فأهمها الصيد وإقامة الولائم وتعاطى الشراب ولعب الميسر والشطرنج والاستماع إلى الرواة والقصاصين وإلى الأغانى ومشاهد التمثيليات الدينية . واعتمد المغنون والمؤلفون فى حياتهم على سخاء السادة الإقطاعيين ، ولذلك فإن الكرم صار فى قصصهم الفضيلة الأساسية عند الفرسان .

ب- طبقة رجال الدين :

اشتملت هذه الطبقة على رجال الكنيسة المسيحية التى تزعمها البابا ، ومن المعروف أن الكنيسة فى العصور الوسطى تمتعت بنفوذ مستقل عن السلطة الدنيوية ، فالبابا فضاً عن كونه نائب المسيح عليه السلام ، فإنه أيضاً خليفة القديس بطرس فى كرسيه الأسقفى بروما ، وقد نمت البابوية فى

أوائل العصور الوسطى حتى جاء سقوط الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى ليجعل من البابوية القوة الوحيدة فى غرب أوربا ، ومن أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها دخلت فى صراع طويل ضد السلطة الزمنية مستخدمة فى سبيل تدعيم نفوذها سلاحين روحيين على جانب كبير من الأهمية ، أولها توقيع عقوبة الحرمان الفردى Excommunication أى القطع من رحمة الكنيسة ، فصار الفرد الذى توقع عليه العقوبة منبوذاً من المجتمع المسيحى ، ولا يصح لأحد التعامل معه أو الاقتراب منه . أما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الجماعى Interdict التى توقع على مجتمع بأكمله سواء كان هذا المجتمع مدينة أو إقليماً ، وفى هذه الحالة تغلق الكنيسة أبوابها فى الجهات المحرومة ، ومن ثم لا يجد الناس أحداً يقضى مصالحهم الدينية مثل التعميد والزواج وغيرها من الأمور المتعلقة بشئون الدين .

على أن جهاد الكنيسة فى سبيل تحقيق سموها جاء مرتبطاً بحركة أخرى داخلية غرضها تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنسية ، وقد نجحت البابوية بعد جهود مضنية فى إحكام قبضتها المطلقة على الكنيسة فى غرب اوربا ومن ثم وصلت البابوية على عهد البابا إنوسنت الثالث (١١٨٩- ١٢١٦م) إلى مركز بالغ الرفعة وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية وسياسة مرسومة ثابتة تجاه السلطة الزمنية ، ومن الملاحظ أن البابوية أخذت تنظم سياستها على سائر قوى المجتمع الأوروبى على أسس إقطاعية أشبه بما اتبعه رجال الإقطاع من طبقة الملوك والنبلاء فعاش الباباوات فى بلاط أشبه ببلاط الملوك والأباطرة ، ثم إنهم دأبوا على إرسال المندوبين البابويين Legati Missi من قبلهم إلى نواحى عديدة ، حيث يعقدون مجامع كنسية إقليمية ويفصلون فى القضايا التى تعرض أمامهم ،

وكان للبابوية موارد مالية ضخمة فأملاكها الواسعة هيأت لها دخلاً ثابتاً ، كما أن المؤسسات الكنسية والديرية كانت ترسل نسبة ثابتة من جميع ممتلكاتها وإقطاعاتها إلى البابوية مقابل تمتعها بالحماية وازدادت أملاك الكنيسة نتيجة الهبات التى كانت تمنح لها فى صورة أراضى " من أجل خدمة الله " والتقرب إليه ، وهى إذا كانت معفاة من الضرائب والخدمات إلا أنها سرعان ما ارتبطت بالنظام الإقطاعى وأخذ الأساقفة يمارسون نفوذاً إقطاعياً عليها .

أما عن التنظيم الكنسى فقد كانت البابوية على رأسه كما رأينا ولها السيطرة التامة على جميع أعضاء الكنيسة ، ويأتى بعد البابا مجموعة الكرادلة الذين بدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية ولكن لم يلبث أن أخذ نفوذهم فى الازدياد تدريجياً نتيجة لكثرة اختصاصاتهم ومهامهم ، وبفضل تنظيم طبقة رجال الدين انقسم العالم المسيحى فى غرب أوروبا إلى أسقفيات واسعة يرأس كل منها شخص يحمل لقب الأسقف وله حق الإشراف على شئون الكنيسة ورجال الدين فى أسقفيته ، وانقسمت كل أسقفية بدورها إلى أبرشيات بكل منها كنيسة يشرف عليها قس ، وتمتع الأسقف فى أسقفية بحقوق قضائية وسلطات واسعة باعتباره نائباً عن البابا فى إقليمه ومسئولاً أمامه . هذا بالإضافة إلى أن الأساقفة صارت لهم ممتلكات واسعة من أراضى وعقار وغيرها أشبه بأفراد طبقة الفرسان ولهذا استلزم الأمر التفرقة بين وظيفة الأسقف الروحية وسلطته الزمنية .

وقد حاولت الكنيسة طوال الفترة التى تطور فيها النظام الإقطاعى أن تحد من الحروب الإقطاعية وأن تحول جهود الفرسان إلى ما اعتبرته سبلاً أكثر فائدة وأعم نفعاً ، وفى القرن الحادى عشر قررت الكنيسة ما

يعرف بهدنة الله وسلام الله ، وهى الفترات التى يتحتم فيها تحريم القتال والراجح أنه استقر فى أذهان رجال الكنيسة فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين ثم حدث فى القرن الثانى عشر أن أخذ الكتاب الكنسيون وأشهرهم حنا سالسبورى فى تنمية فكرة الكنيسة عن الفارس المثال بأن يكون مسيحياً تقياً غرضه الأساسى أن يحمى الكنيسة ويدافع عن عقيدتها ينكر الجرائم على اختلاف أنواعها ويرعى الضعفاء والعجزة .

ومن الجدير بالذكر أن طبقة رجال الدين تمتعت بميزة هامة انفردت بها ، فبينما ظلت طبقة النبلاء أو الفرسان مغلقة على نفسها لا تسمح لأحد لا ينتمى إلى شرف النبالة أن يتسلل إلى داخلها نجد أن أى فرد كائناً ما كان اكتسب تعلياً كنسياً كان له الحق فى الالتحاق بطبقة رجل الدين ، والارتقاء فى سلمها إلى أن يصل إلى أرقى المناصب الكنسية ، وهنا نلاحظ أن البعض من أبناء طبقة الفرسان آثر الانخراط فى سلك الكنيسة أو الرهبان . وأخيراً فإن طبقة رجال الدين كانت أملاً يسعى إليه كل وضيع تدفعه الرغبة فى التحرر من السيطرة الإقطاعية والتزاماتها الثقيلة .

جـ- طبقة الفلاحين :

كان الفلاحون أكثر عناصر السكان وأحطها قدراً فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى وتكونت طبقتهم أصلاً من صغار الملاك الأحرار الذين اضطروا أمام الفوضى التى سادت غرب أوربا فى القرن التاسع الميلادى إلى التنازل عن أراضيهم إلى السادة الأقوياء من النبلاء والفرسان مقابل منحهم الأمن والطمأنينة ضد الأخطار الخارجية وكان أن أخذت أحوالهم فى التدهور تدريجياً نتيجة التصاقهم بالأرض وتفرغهم لفلاحتها حتى عرفوا باسم رقيق الأرض أو الأقنان Villein-Serfs ، ولكن دون أن يهبطوا

إلـى مسـتوى العبيـد وقـد سـبق القـول أن المجتمـع الإقطـاعى فـى العصـور الوسطى قام حول ثلاث شخصيات هام : الفارس المحارب ، ورجل الدين المتعبد ، والفلاح المزارع . وإذا كان الفرسان قد نالوا إقطاعيات من الأرض مقابل تأديتهم لواجباتهم الحربية ، ورجال الدين حصلوا بدورهم على بعض الأراضـى مقابـل تقديم الخـدمات الدينيـة للنـاس وتطهيـرهم مـن ذنـوبهم فـإن الأقنان هم الذين وقع عليهم الغرم كله بسبب وضعهم الاجتماعى المتدنى .

وقد ترتب على وضع القن الاجتماعى التزامات شديدة الوطأة تجاه سيده الإقطاعى فكان عليه الاشتغال أياماً معدودة من كل أسبوع فى مزرعة السيد الإقطاعى دون مقابل وأيضاً الإسهام فى حفر القنوات والخنادق أو شق الطرق وغير ذلك من أعمال السخرة التى أرهقت طبقة الأقنان وهناك ألوان من الاحتكارات خضع لها القن ، منها أنه يقوم بدفع الضرائب الباهظة التى يفرضها عليه سيده سواء نقداً أو عيناً . وكذلك يقوم القن بطحن غلته فى طاحونة سيده ، ولا يخبز عيشه إلا فى فرن سيده ولا يستطيع أن يعصر كرومه وزيتونه إلا فى معصرة السيد ، وهذا كله مقابل أجر يحدده السيد الإقطاعى .

وفيما عدا الالتزامات السابقة امتد نفوذ السيد الإقطاعى إلى حياة القن الشخصية فلا يجوز له مثلاً الزواج أو تزويج إحدى بناته إلا بموافقة سيده ومقابل دفع مبلغ ميعن حتى صارت تبعية القن لسيده تبعية شخصية واقتصادية فى وقت واحد ، ولم تنته التزامات القن بوفاته فلا تنتقل حصته من الأرض إلى ورثته الذين يحلون محله فى الانتفاع بالأرض لا ملكيتها إلا بعد دفع ضريبة كانت فى الغالب فرساً أو ثوراً قوياً .

والواقـع أن القـن عـاش ومـات وهـو يعـانى شـظف الحيـاة وبؤسـها فطعامـه الأساسـى تـألف مـن الخبـز الأسـمر والخضـر العاديـة كاللفـت والفـول والبـــازلاء ، دون أن يطمـــع فـــى تنـــاول اللحـــم والســـمك إلا فى المناسبات السعيدة وقد عبر أحد المعاصرين فى القرن الثانى عشر عن القليل الذى يتناوله القن من طعام وشراب بأنه : " لم يشرب من نبيذ عنبه ، ولم يتذوق أيضاً فضله من طعام طيب ، ولكنه سعيداً للغاية لو أنـه استطاع الاحتفاظ بخبزه الأسمر ، وبضع من الزبد الجبن .

علـى أن حيـاة القـن لـم تخـل تمامـاً مـن التسـلية فـإذا حضـر أحـد المهرجين أو الممثلين إلى ضيعة سيده يجتمع الأقنان للاستمتاع بالتمثيليات الصامتة التى اشتملت على بعض المواقف المضحكة والواقع أن عقلية السيد الإقطاعى لم تختلف وقتئذ عن عقلية القن لضعف المستوى الثقافى العام فى المجتمع الإقطاعى .

وعلى الرغم نمن الحالة السيئة التى وصل إليها القن فى ظل النظام الإقطاعى إلا أنه كان قانعاً بالبقاء فى كنف سيده الإقطاعى راضياً بالحماية التى منحها لـه سيده فى عصر طفح بالفوضـى والاضـطرابات ، ثم كـان أن أخذ نظام الأقنان فى الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التى بأت أوروبا فى اجتيازها منذ أواخر القرن الحادى عشر فالدعوة على الحروب الصـليبية للاسـتيلاء علـى بيـت المقـدس فتحـت البـاب علـى مصـراعيه أمـام الألـوف مـن الأقنـان للاشـتراك فـى الحملـة الصـليبية الأولـى ، وتحـت هـذه الذريعة كان الأمل يحدوهم فى إيجاد حظ أوفر فى مكان آخر ثم كانت نشأة المـدن وتطورهـا التـى لـم تلبـث أن مهـدت الطريـق أمـام الأقنـان للنـزوح إلـى المدن وهجرة الأرض التى ارتبطوا بها . [٤]

حالة الفلاح فى العصور الوسطى :

لقد تباينت آراء المؤرخين الغربيين الحديثين فى وصف حالة الفلاح فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى تبايناً عجيباً وهناك رأيان على طرفى نقيض ، الرأى الأول يقول : أن الفلاح عاش عيشة طيبة فى تلك القرون العشرة التى تمثل المرحلة الوسيطة من تاريخ الإنسانية . أما الرأى المخالف : فيرى عكس ذلك على طول الخط ولذلك يتعين على الباحث مقارنة مختلفة الأصول ببعضها للوصول إلى أسلم النتائج قدر الاستطاعة ، لقد وجد الفريق الأول من المؤرخين أن مجمل ما أداة الفلاح من الحقوق والواجبات والمقررات المفروضة عليه لمختلف الجهات لم يكن مضنياً ، وأنه لم يطالب بما فوق طاقته من المكوس والضرائب ، وأن حالته الاقتصادية لم تكن مرهقة فى تلك العصور ، وعلل أنصار هذا الفريق بأن الفلاح تملك أرضاص طبقاً لنظام التبيعية الإقطاعية لم يكن من السهل انتزاعها منه أو طرده منها ، كما استطاع أن يعيش على محصول هذه الأرض ، ولكن هذا الفريق يسئ أن الفلاح لم يكن أمامه سوى أن يرضى بهذا الوضع الذى فرض عليه والذى لم يكن له يد فيه فى عصر كانت فيه الإقطاعية متغلغلة فى كل شئ ، وأن هذه القطع الصغير المبعثرة التى عمل فيها كانت عبارة عن الإقطاع من سيده التابع نظير واجبات التبعية التى أثقلت كاهله والتى لم تكن تعرف أى حدود أو قيود ، ويجب ألا ننسى أن مستوى ذلك الفلاح ومستوى الأرض التى كان يعمل فيها كانا أقل بكثير جداي من مستوى معيشة الفلاح فى العصور الحديثة .

على أى حال لقد ظل فلاح القرون الوسطى راضياً بدون رغبة منه بحكم السيد اللورد ، ولم يكن أمامه سوى أن يتقبل السلطات والاحتكارات

المقررة عليه ، والتى لم يشترك فى فرضها أو اختيارها وعلى هذا يرى فريق آخر من المؤرخين أن فلاح الوسطى عاش أسوأ أيامه وأنه كان يئن تحت عبء الواجبات واللالتزامات التى ألزم بأدائها لسيده اللورد ، وأنه عانى الكثير من القسوة والظلم والجور والاستبداد والطغيان مع ما فى ذلك من اتجاهات واضحة نحو إيذاء الفلاح ومضايقته وتوقيع العقوبات عليه أكثر مما فيه لحمايته أو الدفاع عنه وعن مصالحه ففى ظل هذه الظروف القاسية عاش الفلاح داخل حدود قريته هو ودابته سواء بسواء لا يعرف شيئاً عما يجرى حوله ، لقد عاش من المهد إلى اللحد داخل هذه الدائرة المغلقة وكفاءة فى ذلك الكفاف من العيش .

لقد عانى الفلاح الوسيط الكثير من المتاعب ، وكان هذا نتيجة لبقايا المجتمع القروى القديم ولنظام الدومين أو النظام الإقطاعى فضلاً عما فى هذا المجتمع من نقص وقصور بسبب قلة الأمن وانعدام القوة التنفيذية القادرة على تنفيذ القوانين واحترام العادات المرعية ، يضاف إلى ذلك الكوارث التى حلت بالفلاح أيام المجاعات والطواعين والحروب المستمرة التى كانت تأتى على الأخضر واليابس مما دفعه إلى الهجرة من قريته إلى المدن والغابات ولم يكن الفلاح بمنجى من هذه النكبات التى لم يكن له يد فيها ، كما لم يكن له حيلة من التخلص من آثارها وعواقبها الوخيمة وخاصة فى ذروة العصر الإقطاعى وقصارى القول أن فلاح القرون الوسطى عاش عيشة لا يحسد عليها وكانت هذه القيود والأغلال التى كبلته بها الأنظمة الإقطاعية من أهم السباب التى أدت إلى ثورته على تلك الأنظمة وتكسير تلك القيود والأغلال فى أخريات العصر الوسيط . (٥)

نظام الضيعة الإقطاعية :

أدى النظام الإقطاعى فى غرب أوروبا إلى قيام وحدات اقتصادية قائمة بذاتها مغلقة على نفسها ، لا تربطها بغيرها أية روابط متبعة نظام الزراعة الاكتفائية أى التى تسد مطالب الحياة اليومية دون الحاجة إلى تبادل فى السلع والمنتجات وتعرف هذه الوحدات بالضياع الإقطاعية ففى إطار الضيعة الإقطاعية Manor يعتمد أهلها على سواعدهم فى توفير ما يحتاجون إليه ، وبمعنى آخر يتعاون الجميع فى كل ما يخصهم من شون ومصالح .

واختلفت الضياع من حيث المساحة وعدد السكان وامتلك السيد الإقطاعى أحياناً ضيعة واحدة وأحياناً أخرى عدة ضياع ، وربما بعدت هذه الضياع بعضها عن بعض ومن مجموع الضياع التى يمتلكها السيد الإقطاعى تألف ما يعرف باسم الدومين Domain الذى يمثل المصدر الحقيقى لقوته ونفوذه ، على أن ملكية الضيعة لم تكن قاصرة على الأفراد ، بل امتلكت الأديرة والأسقفيات الضياع الواسعة وكيفما كان حجم الضياع فإن إدارتها جرت وفق أسس واحدة طبقاً للعرف الإقطاعى فانقسمت الأرض إلى قطع أو حصص وزعت على الفلاحين ، وهم من الأقنان المرتبطين بالأرض واتبع الفلاحون فى زراعة حصصهم نظام الدورة الزراعية أو الحقول الثلاثة Three Fields بمعنى تقسيم الأرض إلى ثلاثة أقسام : يزرع واحد منها فى الربيع والآخر فى الخريف والقسم الثالث يترك بدون زرع لراحة الأرض . وفى السنة التالية يحدث تبادل فيترك القسم الذى سبق زراعته فى العام الماضى دون زراعة ، وبهذه الطريقة فى الزراعة ، كان يترك قسم من الأرض سنوياً دون زراعة لعدم إجهادها ، وحتى ينال كل قسم على التوالى نصيبه من تلك الراحة .

وتطلبت الزراعة فى نظام الضيعة Manorial Regime أو كما يسمى النظام السينورى Seignorial System قيام التعاون بين فلاحى الضيعة الواحدة ، لاسيما فى أيام الحرث والحصاد ، لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات من مواشى وأدوات زراعة التى تمكنه من العمل بمفره ، وقد ساعات طريقة توزيع الحصص على تحقيق النظام التعاونى ذلك أن نصيب كل أسرة من الأراضى الزراعية لم يوجد فى مكان واحد ، وإنما تبعثر هنا وهناك بحيث تداخلت حصص الأسر بين بعضها بعضاً ، ولذا اضطر الفلاحون إلى المساهمة بكل ما يصلح لديهم لزراعة تلك الحصص بأن يقدم هذا محراثة وذاك ثورة وهكذا .

وكان يلحق بكل ضيعة غابة كثيفة بأشجارها كانت فى العادة من مخصصات السيد الإقطاعى ويلاحظ أنه لم يحرم أتباعه من الفلاحين من دخولها ، بل أذن لهم بذلك للحصول على الأخشاب اللازمة للوقود والتدفئة والبناء ، وكان فى بعض الأحيان يتنازل عن جزء من الغابة لأهل الضيعة ويحتفظ بالباقى بنفسه ولهوه ، وفى هذه الحالة لم يكن يسمح لهم بدخول الجزء الخاصة به .

وقد أقام السيد الإقطاعى فى الضيعة فى الدوار Manor House الذى أحاطت به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة توافرت بداخله المؤن ومستودعات الحبوب والمواشى والدواجن وعلى مقربة من الدوار قامت كنيسة محلية ملحق بها منزل قسيسها الذى يرعى شئونها الدينية . أما الفلاحون فقد عاشوا فى أكواخ قذرة من جذوع الأشجار وفروعها غطت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش ، كما تميزت تلك الأكواخ ببساطة أثاثها وقصارى القول أن فلاح العصور الوسطى عاش عيشة لا يحسد عليها وكانت القيود والأغلال

التى كبلته بها الأنظمة الإقطاعية من أهم الأسباب التى أدت إلى ثورته على تلك الأنظمة وتكسير تلك القيود والأغلال فى أواخر العصور الوسطى .

ومهما يكن من أمر فإن النظام الإقطاعى ظاهرة مر بها مجتمع غرب أوربا فى العصور الوسطى شأنه شأن غيره من ظواهر العصور الوسطى وخصائصها المميزة كالفرنسية والحروب الصليبية والرهبنة والديرية والكنيسة والبابوية . وقد ظهر النظام الإقطاعى نتيجة أسباب معينة ألمت بالغرب الأوروبى فى نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ثم تطور ونما واكتمل فى عملية تمازج وتفاعل بطئ . ولكن ما لبث أن تقلص وانهار واندثر آخر الأمر نتيجة لعوامل أخرى ترتبط بنهاية القرون الوسطى وبداية عصر النهضة والتاريخ الحديث . (٦)

وائل اللهو والتسلية التى مارسها النبيل الإقطاعى :

على أية حال امتلك كل نبيل إقطاعى قلعة ، ولا يتوقع الفرسان العاديون والأتباع الإقطاعيون الصغار فى قاع النظام الدرجى أكثر من بيوت مالك العزبة المحصنة والمحاطة بحاجز من قضبان حديدية . والوقع أم كثيراً من الشخصيات الكبرى تعيش بنفس المنوال بل أن معظم كبار الملاك يقضون جزءاً كبيراً من كل عام وسط أراضيهم الزراعية وممتلكاتهم بها ، وبالطبع لم يكن السبب فى أنهم يبتهجون بالمراقبة الزراعية ، وإنما فى أن معظم دخلهم يتكون من الإنتاج والمحصول الذى كان من السهل استهلاكه بدلاً من نقله ، ومع وجود النظام الاقتصادى التقليدى فى أوائل العصور الوسطى كانت الزراعة وسيلة ضرورية للبقاء والعيش أكثر من مجرد عمل مريح . وتم ترك تنفيذ الطريقة المألوفة إلى الوكلاء الإقطاعيين Stewards المحليين أو وكلاء المزارع Bailiffs ، وبقدر الاهتمام بالإدارة

المحلية فما هو عمل الزوجة لتشغل وقتها ؟ وبعبارة أخرى اعتقد النبيل الإقطاعى فى تحقيق المستوى البربرى للطبقة الأرستقراطية ، وكانت المهمة الحقيقية للنبيل الإقطاعى هى خوض المعارك ، وفى الفترات التى تقع بين الحملات الحربية يمارس النبيل الإقطاعى الصيد والاحتفالات وإقامة الولائم ومعاقرة الخمر والمقامرة ، ومغازلة النساء ومضاجعتهن ، ومع ذلك فإنه يصبح مصاباً بالضجر بشدة من وجود حالة السلام إن عاجلاً أو آجلاً ، ثم لا يمكن له أن يفعل أكثر من امتطاء فرسه للمشاركة فى مسابقة الفرسان فى العصور الوسطى .

وكانت تلك الوسيلة الرياضية المفضلة التى تمارسها الطبقة الأرستقراطية معركة بكل معنى الكلمة فى الأصل ما عدا أنها كانت يتم الإعلان عنها رسمياً وتدور رحاها وفقاً لقواعد معينة متفق عليها سلفاً ، وتحت رعاية أحد كبار الإقطاعيين الذين يتصفون بالشهامة والفروسية مع وجود عدد من الذين يتعهدون بالكفالة والضمان مع الشخصيات القوية ، يتم تحديد يوم للمواجهة بين مجموعتين من الفرسان وغالباً ما مثلت المجموعتان أسرتين متنافستين أو مكانين مختلفين .

ويقوم المتنافسون بصف مطاياهم على كلا جانبى ساحة المبارزة بعد ارتدائهم ملابس حربية كاملة الدروع ويبدأون الهجوم بمجرد إعطائهم إشارة البدء ، وبعد أن تتكسر الحراب تستمر المعركة بالسيوف إلى أن يندحر أحد الفريقين أو تتعطل فاعلية أسلحته ، وغنى عن القول فهى مباراة محفوفة بالمخاطر حيث يتم سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، غير أن هناك ما يحقق شرفاً عظيماً بالإضافة إلى الحصول على غنيمة ، ذلك لأن المنتصر فى استطاعته المطالبة بالفرس وأسلحة الخصم المهزوم ما لم يدفع الأخير فدية

ماليـــة

عنهم ، وغالباً ما كان هذا النوع من القتال العام والمبارزة الحقيقية بين الفرسان ، وبمرور الوقت أصبحت تلك المقارعات بالسيف Jousts ، كما كانوا يطلقون شعبية وعملية مظهرية شيئاً فشيئاً ، ومع ذلك فبعد مرور كثير من الوقت انخفضت تلك المبارزات إلى صارت مجرد مهرجانات Pageants لقد كان رجال عصر الإقطاع يقاتلون لمجرد حبهم للقتال وليس – بأسلحة غير حادة – لحبهم للنساء . (٦)

هوامش الباب الثالث

(١) كارل ستيفن : الإقطاع فى العصور الوسطى ، ترجمة : د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ، ١٩٩٣)

(٢) محمود الحويرى : دراسات فى حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ص ١٣٦ ، ١٤٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، النظم والحضارة ، ص ص ٤٧ – ٥٢ .

محمود سعيد عمران : حضارة أوربا فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ٢٠٠٢) ، ص ص ٥٩ – ٦١ .

(٣) محمود سعيد عمران : حضارة أوربا فى العصور الوسطى ، ص ص ٧٨ – ٨٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ، النظم والحضارة ، ص ص ٥٢ – ٥٩ .

(٤) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ص ١٤٩ – ١٦٦ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، ص ص ٦٥ – ٨٥ .

كارل ستيفن : المرجع السابق ، ص ص ٢٩ – ٥٢ .

(٥) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، ص ص ١٢٢ – ١٢٣ .

محمد سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ص ٦٧ – ٦٩ .

هلستر (س. ورن) : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٤٤.

(٦) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ص ١٦٨ – ١٧٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : النظم والحضارة ، ص ص ٧٢ – ٧٩ .

(٧) كارل ستيفن : المرجع السابق ، ص ص ٥٠ – ٥٢ .

جوزيف نسيم : المرجع السابق ، ص ص ١٠٩ – ١١١ .

الباب الرابع
المرأة فى أوربا العصور الوسطى

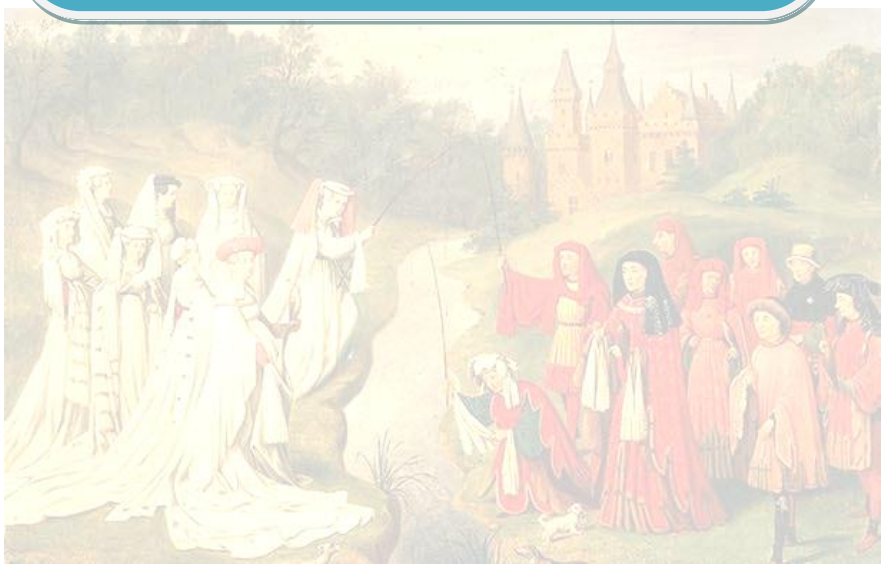

مركز المرأة فى المجتمع :

أما عن مركز المرأة فى مجتمع أوربا العصور الوسطى فكان ثانوياً بحتاً ، ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هى التى تحكمت دائماً فى اختيار الزوجة ، إذ كان يراعى فيها – بقدر الإمكان – أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة قدر كبير من الأرض . وبعد الزواج يصبح مطلوباً منها أن تضع مولوداً ذكراً ، فإن أخفقت فى هذه المهمة كان من السهل على زوجها غالباً أن يغرى الأسقف بفسخ الزواج .

وقد فرض النظام الاقطاعى فى أوربا العصور الوسطى على المرأة أن تكون دائماً تحت وصاية رجل ، أبوها فى أول الأمر ثم زوجها بعد ذلك . أما الأرملة فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها ، حقيقة أنه كان من حق المرأة أن ترث إقطاعاً ، ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقها فى حكمه إلا عن طريق زوجها . ولعله من الواضح – بعد عرضنا لقواعد النظام الإقطاعى – تفسير هذه الظاهرة فى ضوء عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين ، وهى الحرب .

أما الكنيسة فاتخذت فى العصور الوسطى موقفاً متناقضاً من المرأة ، إذا اعتبرتها من ناحية شريكة آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة ، وهى لذلك لا تستحق إلا كل احتقار وامتهان ، كما نظرت إليها من ناحية أخرى على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح ، وهى لذلك جديرة بكل احترام وتقدير . وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، فإن النظرة الثانية جعلتها تساعد فى نشر فكرة سمو المرأة .

على أن الفضل يرجع إلى الطبقة الأرستقراطية فى تطور فكرة تبجيل المرأة فى العصور الوسطى ، إذا غدا هذا التبجيل صفة من الصفات

الأساسية التى يجب أن يتحلى بها الفارس ، حتى قال بعض الكتاب " إن الفارس نصير الله والمرأة " . وتتضح هذه الفكرة واضحة فى أشعار التروبادور التى تظهر كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل وحبه ، وأن المحب لم يستهدف شيئاً غير إدخال السرور على قلب محبوبته ، فلا يأبه لطعام أو شراب ولا يتأثر بحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها .

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زواجها حتى أن كتاب العصور أيدوا حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته ، وكل ما فعلته الكنيسة إزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التى يصح للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته . (١)

المرأة فى الحياة العامة :

يقول المؤرخ ستيفنسن **Setphensen** : " لقد لسم عصر الإقطاع بالقول المأثور أن مكان المرأة هو البيت ، فطالما كانت المرأة لا تستطيع أن تكون فارساً ، فأى شئ تريد أكثر من أن تكون زوجة وأم لعدة أبناء " ، وهناك قول آخر عرف فى العصور الوسطى هو : " أن المرأة خلقت لتكون رفيقاً للرجل ولكن دورها الوحيد يجب ألا يتعدى الحمل والولادة " .

على أن هذه الأقوال ليست صحيحة فى كل الأحيان فقد ساهمت النساء فى أوروبا فى العصور الوسطى فى مختلف ميادين الحياة العامة ، ففى ميدان السياسة والحرب شاركت المرأة فى حضور الاجتماعات السياسية رغم تحذير الأساقفة للنساء ونهيهن عن حضور تلك الاجتماعات .

ففى القرن التاسع نهى أسقف مدينة **Nantes** النساء عن حضور الاجتماعات السياسية ولكن رغم هذا ظل لهن نصيب فى الانتخابات العمومية وإدارة المجالس البلدية فى جنوب فرنسا حتى القرن الحادى عشر ،

وفـى عـام ١٣٠٨م كانـت هنـاك نسـاء فـى مدينـة **Touraine** جـديرات بالتعضيد فى انتخاب نواب جمعية الولايات .

وخلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر كانت هناك حاكمات عظيمات أمثال الإمبراطورة ماتيلدا الكبيرة التى تولت حكم نورمانديا أثناء غياب زوجها وليم الفاتح (١٠٦٦ – ١٠٨٧) فى إنجلترا ، وبلانش صاحبة قشتالة التى فرضت شخصيتها على كل فرع من فروع الحياة الفرنسية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بوصفها وصية على ابنها لويس التاسع ، والأميرة بلانش أميرة شمبانيا التى تولت الحكم فى بلادها وأشعلت حرباً عنيفة لمدة أربعة عشر عاماً (١٢١٣ – ١٢٢٧) من أجل ابنها الصغير الذى كان لا يزال تحت الوصاية .

وهناك أيضاً أرمنجارد **Ermengarde** كونيسة ناربون التى حكمت بلدها وقادت جيوشها لمدة خمسين عاماً والتى أشعلت حروباً عديدة فى سبيل المحافظة على أراضيها ، والجدير بالذكر أن شهرة أرمنجارد لم تقتصر على السياسة والحرب فقط بل كانت ذات شهرة عظيمة كقاض وحكم فى كثير من المشكلات المعقدة للقانون الإقطاعى .

وبينمـا كـان فليـب أوجسـطس ملـك فرنسـا (١١٨٠ – ١٢٢٣) مشغولاً بتوحيد البلاد تحت سلطة التاج ، كانت بقاع كثيرة من فرنسا تحكمها النساء مثل اليانور دوقة أقطانيا وأليكس أوف فيرجى التى حكمت برجنديا ، والكونتيسة بلانش فى شمبانيا وقد أدرن دفة الحكم بمهارة وعملن جاهدات على النهوض بالبلاد التى حكمنها . [٢]

وفى ميدان الاقتصاد ، كانت النساء يقبلن على الاشتغال بالصناعة وكن منافسات خطيرات للرجال على الرغم من أن العمل كان شاقاً ، وكانت

ساعاته فى باريس مثلاً تتراوح ما بين ٨ – ١٦ ساعة يومياً ، وفى بعض البلاد الأخرى كانت تتراوح ما بين ١١ – ١٤ ساعة يومياً .

على أن كثيراً من اللوائح المنظمة للحرف الصناعية حرمت استخدام النساء وبنى معظم تلك اللوائح سبب التحريم على أساس أن منافسة النساء تبخس أجور الرجال إذ أن أجر المرأة كان يتساوى مع أجرى الصبى الذى مازال تحت التمرين ، وكان هذا الأجر يقل كثيراً عن أجر المعلم ، حتى لو قامت المرأة بنفس العمل الذى يقوم به المعلم . وفى أواخر العصور الوسطى استغنى عن الصانعات الماهرات واستبدلن بالصناع من الرجال ، وكان ذلك سبباً فى بطالة الكثيرات من النساء .

أنه كانت هناك صناعتان على وجه الخصوص ظلتا بأيدى النساء لسهولة مزاولتهما فى المنازل وهما البيرة التى كانت شراب الغالبية العظمى من الناس فى تلك العصور والثانية هى ندف الصوف وتمشيطه وغزله ، تلك العمليات التى كانت تعتبر ثانوية تقوم بها النساء فى أكواخهن فى الجهات التى قامت فيها صناعة النسيج على نطاق واسع مثل فلورنسا وهولندا وإنجلترا .

وفى ميدان التجارة نجد أن زوجات التجار كن يساعدن أزواجهن فى هذه المهنة فإذا سافر الزوج بعيداً عن مدينته كانت زوجته تحل محله فى إدارة شئون تجارته ، وكثيراً ما كان يرسل لها البضائع لتتولى عرضها وبيعها فى السوق وعلى سبيل المثال اعتاد أحد التجار ويدعى وليم دارنر من مدينة بوسطن فى إنجلترا وكان يتاجر فى الأسماك أن يرسل لزوجته أثناء غيابه أسماكاً مجففة وبضائع أخرى لكى تعرضها فى السوق للبيع كما تفعل فى البضائع الأخرى .

هـذا ولـم تتـوان النسـاء عـن طـرق ميـدان التجـارة الخارجيـة ، وقـد كـن قـادرات حقـاً علـى تصـريف كافـة الأعمـال المتعلقـة بهـا بمهـارة فائقة .

أما فى الزراعة فقد كانت النساء الفلاحات والنساء من طبقة القنان يعـاون أزواجهـن فـى الحقـول فـيعملن فـى بسـاتين الكـروم والخضـر ويقمـن بمختلف أنواع العمل فيما عدا الحرث الذى كان عملاً شاقاً بالنسبة لهن .

أمـا بنـات القـن غيـر المتزوجـات فقـد كـان فـى اسـتطاعتهن أن يستخدمن سواعدهن القوية نظيراً أجر قط الأعشاب وعزق الأرض والمعاونة فى جمع المحصول . أما الأرامل والعانسات من طبقة الأقنان فكانت لهن حصص صغيرة من الأرض يقمن فيها بنفس الخدمات التى يقوم بها الرجال ويعشن على ما تفعله تلك الحصص .

وإذا تركنـا الاقتصـاد إلـى الأدب وجدنا أسماء نسـاء تتردد فـى هذا الميدان أمثال الكونتيسة بياتريس التى عبرت فى قصائدها الوجدانية الخمس عن حبها للكونت رامبوت أوف أورانج **Raimbaut of Orange** ، وهناك أيضاً تيبرجا **Tiberga** أبنة بياتريس ، وكاستلوكس **Castellox** ، وكلارا أوف أندوس **Clara of Abduse** وأيزابيلا أوف مالاسبينا **Lasabella of Malaspina** ، وماري أوف فنتادور **Marie of Ventadour** وهناك أيضاً الأديبة الشاعرة الفرنسية ماري دى فرانس **Marie de France** التى عاشت فى منتصف القرن الثانى عشر وقضت بضع سنين فى بلاط الملك هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩) وزوجته الملكة اليانور وقد خلفت ماري اثنتى عشر قصيدة بدأتها بقولها فى ثقة واعتزاز : **Marie mon nom, Je suis de france .**

وقد برعت مارى فى كتابة قصص الحب والمغامرات وسارت على العرف الشعرى المألوف فى ذلك الوقت .

وفى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ظهرت الكاتبة الأدبية الفرنسية كريستين دى بيزان **Christien de Pisan** ولدت كريستين فى مدينة البندقية ثم هاجر أبوها إلى فرنسا وهى طفلة صغيرة واستقرا بها ، وقد تزوجت كريستين فى عام ١٣٧٢ من نبيل فرنسى يدعى اتين كاستل **Etienne Castel** . (٣)

المرأة أثناء منتصف العصور الوسطى :

تكون المعلومات قليلة بشأن موقف النساء فى الطبقة المتوسطة والدنيا من السلم الاجتماعى قبل عام ١٢٠٠ ، فقد كان لهم حرية الفعل أو الأداء مثل النساء الأرستقراطيات وكانت لهم الحرية فى اختيار أزواجهن ولكن الاستقلال أتى بسبب عدم وجود أمن اقتصادى وكان الكثير من النساء لهن وظائف خارج المنزل بالإضافة إلى المنزل وهى مساعدة أزواجهن فى متجر العائلة أو فى الحقل ، كثير من هذه الوظائف كانت محددة على كل من الجنسين ولكن النساء يبدو أن لهن أهمية كبيرة فى قوة العمالة فى أوائل العصور الوسط عن أواخر هذا العصر وعلى سبيل المثال كانت أعمال النسيج يعمل بها الإناث بشكل كبير وغالباً كانت توجد فى المناطق الريفية فى أول تلك الفترة ولكن فيما بعد أصبح الرجال يسيطرون على هذه المهنة فـــى المـــدن عنـــدما تطـــور النـــول الأفقـــى الثقيـــل ، وأيضاً الناس كان يغزلن خيط الغزل والذى كان عادة يستخدم فى صناعات المدن .

واشتغلن كممرضات وخاصة صانعات للخبز ، وعندما استأجروا الرجال والنساء للعمل فى نفس الوظيفة أصبحت أجور النساء عموماً أقل من أجور الرجال .

أما نساء الحضر أو المدينة غالباً ما كان يظهرن فى الحياة العامة ، وبالرغم فى بعض المدن كان هناك أعضاء نقابات فى منتصف العصور الوسطى ولكن اتجاههم فى هذا الشان قل فيما بعد ، لأن الإمداد بالرجال للعمل فى المدن ازداد عن الطلب للبضائع ، ولم تعد النساء موظفات فى النقابات ولكن بعد نظام عضوية النقابات تطور النظام على أساس الوراثة فكانت تنتقل حق العضوية إلى أولادهم ، وكثير من النقابات سمحت للارملة أن تشرف على تجارة زوجها بعد موته ، وهذا فى حد ذاته يوضح أن الزوجات كنّ يتوقعن أن يشاركن بدرجة كافية فى الأعمال التجارية للأسرة لذلك كان يحاولن تعلم الضروريات أثناء وقت حياة أزواجهن .

وإذا لم تكن النساء متحررات رسمياً تستطيع فقط أن تعقد صفقات تجارية من خلال وصى ذكر وعموماً يكون زوجها أو والدها أو أخوها . بالممارسة فيما بعد هذا التحديد على نشاطاتهن قد تم إهماله وتجاهله خاصة فى المدن ، وظهرت نساء أصحاب أعمال مستقلات اللاتى استطاعن أن يحصلن على مكانة بموافقة أزواجهن وهم غالباً أشخاص لهم مادة ، ويعتقد أن النساء من أصحاب الأعمال المستقلات فى المجتمع الريفى هن من مستويات اجتماعية منخفضة أو عالية ، فمثلاً منطقة البريويج كان يسيطر عليها الرجال فى المدن ولكن فى المناطق الريفية كانت توجد حرف للأرامل والزوجات الذين كانوا يساندوا فى دخول عائلاتهم .

وعلى الرغم من المصالح الشخصية والملكية للعائلة كانت تمتد من خلال علاقة القربى وربما يحدد ويقيد أحكام الزواج . وهذا حدث أسساً بين

هؤلاء الذين يمتلكون كميات كبيرة من الملكية ، وأن التهديد بعدم التوريث والشكوك بهذا الشأن منع الكثير من عقد الزواج وخاصة بين الأقارب الذين توجد بينهم خلافات وخاصة الزوجة ولكن تعتبر الزيجات أسهل بشكل معقول فى عقدها عندما يعقد سابقاً . وكان معظم هذه الزيجات تعقد بسبب منفعة الأفراد أكثر من منفعة للعائلات وكان يوجد قانون ينظم الزيجات كشئ مقدس وزواج صالح ويتم بين اثنين من البالغين ويأخذون تعهدات سراً ثم يشرعون فى الزواج وعادة كان يعقد الزواج عن طريق كاهن ، ما عدا فى إيطاليا حيث أن الزواج كان احتفال مدنى يشرف بالعلانية ولا يجرى فى الكنيسة إلا إذا طال القانون المدنى المحلى بذلك .

والزواج فى كل المستويات الاجتماعية كان يتطلب نواحى اقتصادية وأثناء أوائل القرون الوسطى كان يبدو وجود نقص فى النساء فى سن الرشد لذلك وجب على الرجال أن يقدموا مهر لكى يتم زواجهم على نساء الذين لهم ملكية ، وخاصة من القرن الثانى عشر ارتفعت قيمة مهر المرأة ، نجده فى معظم أجزاء أوروبا بينما هبة الزوج قلت فى قيمتها وخاصة فى إيطاليا ، وأجل الأباء تحديد أبنائهم وأيضاً فرضوا شروط على ميراثهم حتى مكنوا بناتهم من الحصول على مهر حتى تمكن من زواجهم من زوج مناسب . وهذا الاتجاه كان سببه عدم توازن نسبة الجنس لصالح المرأة وكان ذلك سبباً فى الكثير من المشاكل الخطيرة فى علاقات الأسرة فى أواخر العصور الوسطى . وأثناء منتصف العصور الوسطى حدث فى أوربا أن تزايد السكان والذين أصبحوا غير متوازياً عن ما سبق تاريخياً ، حيث أن إنتاج المزارع قد توسع لدرجة أن أصبحوا يمدوا المدن الكبرى بإنتاج المزارع ، وأصبح الطلب على الطعام فى أسواق الحضر ومع وجود تضخم أدى إلى زيادة فى الإمداد بالعملات وساهم هذا فى انهيار المؤسسات الراسخة فى أوائل العصور

الوسطى ، وبدلاً من ذلك حدث أن المزارعين المحدثين الذين لم يكونوا مرفهين اقتصادياتً أن لجأوا إلى الإنتاج الكثير بكل الوسائل وذلك تزويد الأسواق بمنتجاتهم وأصبحت التقنيات التى عن طريقها تنتج البضائع والخدمات متطورة وأمكن استبدالها ونقلها فى السواق الإقليمية والدولية وتطورت آلية التسويق ، وفى المدن التى يوجد بها إمدادات كبيرة بالعمال استخدمت للإنتاج ولأول مرة أصبح هناك تصدير لكميات كبيرة من السلع المصنعة وكانت منسوجات الصوف من أهم الصناعات ولكن السلع الكمالية كانت لها سمات خاصة عالية الجودة وهى كانت تصنع للبيع فى الخارج الأوربيون الذين يمتلكون الضيعات والممتلكات . وهكذا سيطرة الرأسمالية التجارية وضروریاتها على الاقتصاد الأوروبى قبل حدوث الثورة الصناعية والتى خلفت أثناء منتصف العصور الوسطى .

إن تطور التجارة العالمية فى منتصف القرون الوسطى ونمو التعقيدات فى الحكومات المدنية ظهرت المنتجات ليس فقط بسبب التغير التكنولوجى ولكن بسبب الثورة فى التعليم والتى اعتمد على معرفة المعلمون وانتشرت أسس العلم بدرجة لا يمكن إدراكها وهكذا تحولت كل القضايا والأسباب إلى التغيرات العقلية فى منتصف العصور الوسطى . (٤)

هوامش الباب الرابع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى النظم والحضارة ، جـ٢ ، (القاهرة ، ١٩٩١) ، ص ٨٦ – ٨٧ .

(٢) أسمت غنيم : المرأة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ١٩٨٣) ، ص ٨١ – ٨٢ .

(٣) أسمت غنيم : المرجع السابق ، ص ٨٥ – ٨٧

وعن المرأة فى العصر البيزنطى : أنظر :

علية عبد السميع الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، (القاهرة ، ١٩٨٢) .

(4) Nicholas (David): The Evolution of the Medieval World, (London and New York, 1992), PP. 314-316.

الباب الخامس
الرهبنة والديرية

الباب الخامس

نشأة الرهبنة وانتشارها :

الرهبنة تعنى الزهد ولتنسك أو الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار الفقر طوعاً ، كما تعنى تطهير الروح واحتقار الجسد والإعراض عن شهواته . وقد ظهر الزهد بين عدة طوائف وجماعات مختلفة فى ممالك الشرق القديم قبل ظهور المسيحية بقرون وظل فيها قائماً حتى القرون الأولى للمسيحية . ومن أهم تلك الطوائف طائفة البراهمة المشهورة فى بلاد الهند وهم يدينون بمذهب كونفوشيوس وبوذا ومنها طائفة اليهود الأسينين التى نشأت منذ القرن الثانى قبل الميلاد وعاشت بعيداً عن بيت المقدس ، حيث انفردت بمساكنها حول شواطئ البحر الميت ، ولكن الرهبنة ظهرت لأول مرة فى المسيحية على ضفاف وادى النيل ، وكانت اتجاهاً مسيحياً أصيلاً غير متأثر بحركات النسك السابقة للرهبنة المصرية لاختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والأسلوب كما أن الرهبان الأوائل الذين أسسوا حياة الرهبنة لم تكن ظروفهم البيئية أو العملية تمكنهم الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يحذوا حذوها . ومع انتشار المسيحية فى مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر تدريجياً ، وسمعنا عن شخص يدعى فرونتيوس (١٣٨ – ١٦١ م) رحل إلى برية نيتريا (وادى النطرون) وفى صحبته سبعون مسيحياً ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

والواقع أن جذوة حياة الرهبنة والزهد فى مصر المسيحية ترجع إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى مصر الرومانية ، فقد أرهق الرومان المصريين بشتى الضرائب ولا سيما ضريبة الرأس ، وأثقلوا كاهلهم بمختلف الأعباء الإلزامية كزراعة الأراضى المهجورة بالرغم عنهم حتى ضاق الفلاحون ذرعاً

بالحياة فكان سلاحهم القاطع عندما يفيض بهم الكيل أو يفوق ما يعانونه حد الاحتمال هو الامتناع عن دفع الضرائب أو الفرار من قراهم إلى قرى أخرى أو إلى الأدغال أو إلى الصحراء النائية ، هذا فضلاً عن الاضطهاد الدينة البشع الذى لقيه المسيحيون ، والذى بلغ أشده فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) ، أجبرهم على الفرار والبحث عن ملاذ فى الصحراء ، فأخذوا يهربون من المدن ، وهجروا الأهل ومسقط رؤوسهم ، وذلك للعيش بعيداً فى حياة قاسية يزاولون فيها الصلاة وتطهير النفس من الشهوات .

ومن الذين فروا من قسوة الاضطهادات التى أنزلها بهم الرومان الراهب بولس ، وقد ولد بولس من أبوين موسرين حوالى عام ٢٥٠م وأصبح يتيماً فى السادسة عشرة من عمره فتولى الوصاية عليه زوج أخته ، وكان بولس قد اعتنق المسيحية ولذلك عزم زوج أخته تسليمه إلى الوالى الرومانى طمعاً فى ماله ، ولما علم بولس بذلك فر بدينه تجاه البحر الأحمر بالقرب من جبل القلزم ، وظل فى عزلته التامة عن المجتمع حتى مات فى المغارة التى سكنها .

على أن الرهبنة أخذت وضعها الثابت المعروف على يد القديس أنطونيوس حتى أطلق عليها المؤرخون اسم " الرهبنة الأنطونية " نسبة إليه ، لأن ما سبق ذلك لا يمكن اعتباره إلا بمثابة مقدمات ارتجالية مهدت لنظام أنطونيوس ، وقد ولد أنطونيوس فى سنة ٢٥٠ م ، من أسرة ثرية فى قمن العروس مركز الواسطى بإقليم بنى سويف من صعيد مصر ، ولما مات والده ترك له ثروة طائلة ، ولكنه تنازل عنها ووزعها ، ورحل إلى سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى ، حيث بنى لنفسه صومعة انفرد فيها ، وظل يواصل رحلته حتى استقر به الحال نهائياً فى الجبال الواقعة قرب

ساحل البحر الأحمر ، واجتذبت شهرته جماعة من الرهبان تتلمذوا على يديه ، ومات أنطونيوس فى سنة ٣٥٦ م بعد أن بلغ من العمر مائة وست سنوات ، وقد احتذى مثاله أعداد كثيرة من الرهبان ، حتى صارت جبال الصحراء الشرقية كلها مزدحمة بهم ، وهنا نلاحظ أن النظام الذى سار عليه أنطونيوس ظل فى أساسه نظاماً فردياً قوامه العزلة والتقشف ، وتعذيب الجسد وإذلاله لخلاص الروح ، وكان الرهبان أتباع أنطونيوس يتنافسون فى ذلك إلى حد تفوق الوصف .

وقبل منتصف القرن الرابع الميلادى ، وضع القديس باخوم (٢٩٠ – ٣٤٨م) نظامه الجديد فى الرهبنة الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة ، وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى ، فأصبح فى الواقع مؤسس الرهبنة الجماعية أو الديرية الجماعية ، وهو النظام الشائع فى الشرق والغرب ، وقد ولد باخوم من أبوين وثنيين ، ، وخدم فى شبابه فى جيش الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٣٧م) ، وحدث أثناء وجود فرقته فى ضواحى إسنا فى مصر العليا ، أن خرج الأهالى يحملون إليه هو وزملاؤه الطعام والشراب ، فأثر فى نفسه ما لمسه من عطفهم وكرمهم ، فتحول إلى المسيحية ، وتتلمذ على أيدى راهب يدعى بلامون **Palamon** ، حتى صار له الكثير من الأتباع والمريدين ، وفى طيبة أسس باخوم ديره الأول ، واستخدم فى إدارته نظاماً يقوم على حياة الفقر والتبتل والطاعة والابتهال ، فضلاً عن الأعمال اليدوية التى يقوم بها الرهبان تحت إدارة رئيس منهم .

وكان باخوم يشترط على من يريد الالتحاق بالدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار ، وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائة مرتين فى كل يوم ، فى الظهر وفى المساء ، وفى وقت الأكل كانوا يستمعون لأحد

الرهبان وهو يقرأ فصلاً من الكتب المقدسة على أنه يلاحظ بخصوص الأديرة الباخومية أنها جعلت الأعمال اليدوية إجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى أفكاره لا تتفق وطبيعته ، فى الوقت الذى كانت تلك الأعمال يكسب بها الراهب قوته الضرورى حتى لا يكون عالة على المجتمع . وقد اهتم باخوم بتعليم الرهبان ، ولهذا نظم ثلاثة دروس يومية فى النهار للمبتدئين ودروساً أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة ، وكان حضروها إجبارياً .

ولما كثر عدد المنضمين إلى دير باخوم فى طيبة وضاق بهم الدير ، أنشأ باخوم أديرة أخرى فى تبانيسى القريبة من دندرة الحالية بمحافظة قنا ، وأنشأ ديراً آخر فى فبو (حالياً فاو) ، وشيد ديراً ثالثاً فى شبنست يعرف الآن بدير بلامون ، وكل دير من تلك الأديرة يبعد عن الآخر بمسافة قليلة ، وعلاوة على ذلك شيد باخوم مؤسسات ديرية أخرى . ولم يكتف باخوم بإنشاء أديرة للرهبان ، بل أنشأ أيضاً أول دير للنساء فى ناحية السليمات التابعة لمدينة دشنا بمحافظة قنا ، عهد إلى أخته بإدارته ، وقد أحرز هذا الدير الذى يعرف بدير العذارى نجاحاً هائلاً ، جعل المعاصرين يشيدون أديرة للنساء على نفس القاعدة .

ومن الرهبان الذين تركوا أثراً واضحاً فى تطور الديرية فى مصر القديس شنودة (٣٣٣ – ٤٥١م) ، وقد وصفه المؤرخ الأمريكى وريل **Worell** بأنه أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصور تاريخهم الطويل ، وبأنه مؤسس المسيحية القبطية ، فقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا خمسة آلاف ، وكان أيضاً أباً للف وثمانمائة راهب ، وقد كتب لهم عدداً وفيراً من الرسائل توضح تعمقه فى الدين ، واهتم بتثقيف رهبانه ، ووضع لهم أنظمة أشد صرامة من أنظمة

بـــــاخوم ، وبينمـــــا ضـــــمت أديـــــرة بـــــاخوم أجناســـــاً عديدة ، اقتصر شنودة فى أديريته على الأقباط ، وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة . وفى الوقت الذى كانت كنائس باخوم خاصة بالرهبان فقط ، فتح شنودة كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليها فى أيام الآحاد والأعياد فيعظمهم ويرشدهم .

كانت حياة الرهبنة والنظام الديرى هما الإسهام البارز للكنيسة المصرية الذى ترك أقوى أثر فى المسيحية ، وذلك بفضل رجال نشأوا على حب الفضيلة والطهارة وإنكار الذات ، واجتلبت شهرتهم أنحاء العالم المسيحى ، فجاءت جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش والأرم واللاتين إلى صحراوات مصر لتنهل من مورد النظام الديرى الذى ابتكرته العبقرية المصرية .

ومن فلسطين وفد على مصر الراهب هيلاريون **Hilarion** فى أوائل القرن الرابع الميلادى ليتعلم على أيدى أنطونيوس ، وبعد أن لازمه شهرين وشاهد الأعداد الغفيرة التى أتت لزيارة أنطونيوس رجع إلى وطنه وعاش فى صومعة بالقرب من غزة ، اتخذها سكناً له لمدة خمسين عام ، وبعد موته بسنوات قليلة انتشرت الأديرة فى جميع أنحاء فلسطين على النمط المصرى ، وفى سنة ٣٨٥ م غادر القديس جيروم القسطنطينية بصحبة الراهبة بولا **St. Paula** وبعض النساء الرومانيات إلى الأرض المقدسة بفلسطين ، ومن هناك واصل جيروم ومعه الرحلة إلى مصر حيث زاروا أديرة وادى النطرون ، وبعد عودتهم إلى فلسطين استقروا فى مدينة بيت لحم ، حيث شيدت بولا أربعة أديرة ، ثلاثة منهم للراهبات وواحد للرهبان ، وهو الذى أقام فيه جيروم ، وأتم فيه معظم أعماله الأدبية .

ويعتبر القديس باسيل أسقف قيصرية بآسيا الصغرى صاحب الفضل فـــى تأســـيس العديـــد مـــن الأديـــرة فـــى آســـيا الصـــغرى وبـــلاد اليونان ، فقد جاء إلى مصر فى القرن الرابع الميلادى وعاش عدة سنوات فى أديرة باخوم فى الصعيد ودرس نظامها ، ولكنه أدخل تغييرات أساسية فيها .

والديرية شأنها شأن المسيحية دخلت الحبشة (أثيوبيا) من مصر ، ويقال إنه فى سنة ٤٨٠ م أخذ القديس أراجاوى **St.Aragwi** نظام الديرية على النسق الباخومى ، وقد سافر معه إلى الحبشة ثمانية رهبان من دير القديس أنطونيوس . وقد عرف أراجاوى وهؤلاء الرهبان فى الكنيسة الحبشية باسم " القديسين التسعة " وإليهم يرجع الفضل فى تشييد الأديرة وتثبيت العقيدة المسيحية .

وممـن يرجـع الفضـل إلـيهم فـى نشـر نظـام الرهبنـة المصـرى فى غرب أوروبا الراهب والكاتب الكنسى يوحنا كاسيان (٣٦٠ – ٤٣٥م) فقـــد غـــادر بـــلاد الغـــال (فرنســـا) إلـــى مدينـــة بيـــت لحـــم بفلسطين ، وقضى بعض الوقت فى أديرتها ثم توجه إلى مصر لزيارة النساك المصريين فى صحراء وادى النطرون حيث عاش مع الرهبان سبع سنوات ، ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية ، وفى مرسيليا فى جنوب بلاد الغال أســـس كاســـيان ديـــراً علـــى النســـق المصـــرى ، وعلى مقربة منه شيد القديس هونوراتوس **St.Honoratus** دير ليران فى سنة ٤٠٠م ، حيث ظل يطبق النظام الديرى المصرى إلى أن أدخل فيه النظام البندكتى فيما بعد .

ومهما يكن من أمر فقد وصل نظام الرهبنة المصرية إلى جهات بعيدة خارج حدود مصر وأثر فيها تأثيراً كبيراً فى الوقت الذى توالت على مصر جماعات عديدة قدمت من أنحاء الشرق والغرب لمشاهدة وتعلم الديرية المصرية التى سمعوا عنها كثيراً ، وإذا كان نظام الرهبنة والديرية فى مصر القرن الرابع قد أدى إلى اعتزال آلاف من المصرين ميدان الحياة العملية وشل كثيراً من مرافق الحياة العامة فالحقيقة التى لا يمكن إغفالها أن الإمبراطورية البيزنطية كانت وراء ذلك فهى التى فرضت الالتزامات الثقيلة على الفلاحين واضطرتهم إلى ترك أراضيهم هذا فى الوقت الذى حرصت مصر على الاستقلال بكنيستها ، ولقيت فى سبيل ذلك أشد أنواع الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، ونتيجة لذلك لجأت الغالبية من الشعب المصرى إلى المقاومة السلبية ، وذلك بالفرار إلى الأديرة وبهجر مزارعهم وقراهم ، مما أدى إلى انتشار الفوضى فى البلاد واضطراب جميع مرافقها ، ووجه الأهمية هنا أن الإمبراطورية لم تغير من واقع الأمر شيئاً فبقيت نفوسهم تضطرم بنيران الكراهية ضدها ، وتطلعوا إلى اليوم الذى يتخلصون منه من مساوئ الحكم البيزنطى البغيض ، ولهذا فقد التف الأساقفة والرهبان حول الشعب المصرى ، وأمدوه بقوة روحية هائلة على احتمال الاستبداد السياسى والاضطهاد الدينى . وسار الشعب المصرى وراء زعامته الروحية ، وظل وثيق الصالة بتقاليده الوطنية ولغته القومية . [1]

الديرة البندكتية (القرن السادس)

لم تتحقق الفكرة الديرية فى أوربا على الوجه الأكمل إلا فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس على يد القديس بندكت **St. Benedict of Nursia** الذي أدخل نظام الديرية على أساس الحياة الاجتماعيـــة للرهبـــان فـــي أديـــرة لهـــا قوانينهـــا وتقاليـــدها وأنظمتها .

بدأ بندكت حياته راهباً متزهداً متقشفاً منفرداً في أحد كهوف منطقة تقع في أواسط آسيا . وأدرك ما كان يعانيه الرهبان المتوحدون من صعاب . ولما كان بندكت من أسرة عريقة ويمتلك ثروة كبيرة ، فقد قام بتشييد ديره المعروف في مونت كاسينو **Monte Cassino** والتف حوله عدد كبير من الرهبان . فوضع لهم قانونه الذي كان أساسه إنساني وروحي في آن واحد ، بعكس الحال فيما مضى . إذ كانت الفكرة القديمة روحية بحتة لا تهتم براحة الجسد ومطالبه . بل كان كل ما يهم المتوحدون الأقدمون هو تعذيب أبدانهم وتعريض حياتهم الدنيوية للأخطار . ولكن بندكت اهتم بحاجات الراهب البشرية إلى جانب التزاماته الروحية . ويقوم نظامه على أربعة اعتبارات ، رئيسية هي : التبتل والطهارة ونكران الذات والطاعة العمياء .

وإلى جانب هذه القواعد الرئيسية الأربع ، فقد نظر بندكت إلى الراهب كمخلوق بشري . فأوصى بالاعتدال في التقشف ، وجعل حياة أتباعه في أديرته حياة اجتماعية . كما أدخل على حياتهم نظام العمل اليدوي والذهني في نشاطهم اليومي . فخصص بعض الرهبان لفلاحة الأرض ،

والبعض لرعاية الماشية ، والبعض لإعداد الملبس والمأكل والمشرب ، بحيث يصبح الدير البندكتي وحدة مستقلة لا تحتاج للعالم الخارجي في شيء .

وفضلاً عن ذلك فقد أوجد في كل دير نواة لمكتبة ومكان لنسخ الكتب **Scriptorium** ، لكي يواصل كل من يلمس في نفسه نزعة أدبية نشاطه العلمي والأدبي هناك . وقد حفظت هذه الأديرة الكثير من التراث الكلاسيكي والكتب القديمة التي كانت فى خطر الزوال أثناء غزوات البرابرة . وداخل هذه المكاتب واصل النساخ والمؤلفون تحرير الكتب التاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التي لا يزال الكثير منها متداولاً حتى اليوم . والغريب أن هذه النزعة الأدبية العلمية أخذت تنمو وتتسع في الأديرة البندكتية في وقت كان الناس يخطون في جهل عميق . وبمرور الزمن تأسست بعض المدارس في تلك الأديرة كانت تستهدف تعليم الأطفال الذين أعدوا لكي ينخرطوا في سلك الكهنوت فيما بعد . وعلى هذا كانت أديرة بندكت منبعاً للعلم والعرفان ، كما أنها أدت أكبر خدمة لحضارة الفكرية في غرب أوروبا في العصور الوسطى .

وعندما ظهرت للناس فضائل هذا النظام الجديد ، أخذ الكثيرون منهم يلتحقون بالأديرة البندكتية وانتقلت تلك الحركة الجديدة من إيطاليا إلى غرب أوروبا ، وحلت نهائياً محل حركة التوحد والعزلة والتقشف .

ولكن ديرية بندكت ، شأنها شأن جميع الحركات والظواهر الهامة في التاريخ ، لم تبق على نشاطها وتقدمها إلى الأبد ، إذ أخذت تسير نحو التدهور عندما ازدادت ثرواتها بفضل اجتهاد الرهبان أنفسهم في الاهتمام بأمور الحرث والغرس ورعاية الماشية على أساس إنكار الذات . فكان أن تكاثرت الثروات ، ورأى الرهبان أن الفائض منها يغنيهم عن العمل . فاخذوا

في التكاسل الذي أعقبه الفساد والتدهور . وتركوا أمور الحرث والغرس لعامة الناس يقومون بها تحت إشرافهم . وهكذا أصبح الراهب يجني خيرات الأرض دون أن يتعب فيها . وترتب على ذلك أن دب الفساد في الأديرة البندكتيه . ولم يأت القرن التاسع حتى أخذ الناس يدعون لإصلاحها بكل الطرق والوسائل . (٢)

الأديرة الكلونية وأنظمة ديرية أخرى :

وفي عام ٩١٥ أسس وليم التقي **William the Pious** دوق أكويتين دير كلوني **Cluniac** بالقرب من مدينة ماكون **Macon** ببرجانديا ، وقد بدأت الحركة الكلونية بداية محدودة في أول الأمر ثم أخذت في الانتشار تدريجياً إلى أن أصبحت في القرن العاشر مثلاً يحتذى به فى في عملية الإصلاح وكانت الأهداف الرئيسية لهذه الحركة ترمي إلى فرض قسط واسع من الرقابة على الرهبان ، ووضع حد للانحلال الذي ساد الحياة داخل الأديرة حينذاك ، وقد رؤى أن ذلك لا يتأتى إلا عن طريق إخضاع الأديرة التابعة لدير كلوني إلى إشراف موحد ، هذا بالإضافة إلى تحديد واجبات الحياة الديرية تحديداً واضحاً . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية استطاع دير كلوني – الذي لم يكن يمتاز في أول الأمر عن غير من الأديرة البندكتية العادية – أن يتزعم شبكة مترابطة من الأديرة ذات طابع خاص ، وأول مميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الكلونية لم تكن هيئات منفصلة بعضها عن بعض ، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم أو رئيس دير كلوني ، ويخضعون له خضوعاً مباشراً . وبعبارة أخرى أصبح دير كلونى بمثابة الدير الأم لهذا التنظيم الجديد . كما تميز النظام الكلوني أيضاً بنجاحه في تحرير الأديرة الكلونية من سيطرة الأساقفة المحلين ووضع المنظمة الديرية الكلونية بأكملها تحت سيطرة البابا المباشرة .

والواقع أن الكلونيين لم يكونوا مجددين تماماً ، فقد اعتمدوا على المبادئ الباخومية في مسألة الحياة الاجتماعية ، كما اعتنى رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال اليدوية ، ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا نفسها ، ونادت وعملت على إصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية في شئونها . وقد نجحت الحركة الكلونية في بعث روح قوية في الحياة الديرية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة بفضل الشخصيات الممتازة التي تولت رئاسة دير كلوني مثل القديس أودر **St.Odo** (٦٩٦ – ٩٤٢ م) والقديس أوديلو **St.Odilo** (٩٩٤ – ١٠٤٩م) ، وأيضاً بفضل حماسة الرهبان الكلونيين الذين قاموا بدور واضح في تشجيع الحرب ضد المسلمين في إسبانيا ، وفي تشجيع حركة الحج إلى الأراضي المقدسة أيضاً . وعلى أية حال فقد انتشرت الأديرة الكلونية في شمال غرب أوروبا وفي إنجلترا نفسها بعد الغزو النورماني لها سنة ١٥٦٦ م ، على يد وليم دوق نورماندیا المعروف باسم وليم الفاتح ، وبلغ عدد الأديرة عدداً كبيراً بحيث أصبح ما كان يوجد منها لا يقل عن مائتى دير خضع رؤساؤها خضوعاً مباشراً لمقدم دير كلوني .

ولكن عوامل الانحلال والفساد ما لبثت أن تطرقت إلى الحياة الديرية الكلونية عندما أخذ رهبان الأديرة الكلونية يحيون حياة مترفة ومسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس ، هذا في الوقت الذي جنحوا فيه إلى البطالة والكسل ، يضاف إلى ذلك أن إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة على كاهل رئيس دير كلوني يعتبر نقطة ضعف خطيرة في النظام الكلوني بأكمله ، وعلى هذا التركيز أصبح صلاح الأديرة أو فسادها مرهون بشخص

رئيس دير كلوني لأنه إذا حاد رئيس دير كلوني عن الصواب فإن ذلك يؤدي إلى سريان هذا الفساد في كافة الأديرة الكلونية ، وقد اتضح ذلك في أوائل القرن الثاني عشر عندما بدأت سلسلة من الرؤساء الضعاف بعدما انتهت سلسلة مقدمي دير كلوني الصالحين ، وعلى ذلك بدأ الانحلال يدب فى دير كلوني نفسه ثم ما لبث أن سرى هذا الانحلال إلى بقية الأديرة الكلونية .

وقد أدى هذا الانحلال إلى دفع بعض الراغبين في الإصلاح إلى البحث عن نظام أكثر بساطة من الأنظمة السائدة في الأديرة الكلونية ، وقد أدت هذه الحركة إلى قيام أنظمة ديرية جديدة . ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولي **Camaladoli** نسبة إلي اسم الجبل المنعزل الذي يقع بالقرب من أرزو الواقعة في إقليم فلورنسا بإيطاليا . وقد اعترف البابا إسكندر الثاني (١٠٦١ – ١٠٧٣ م) بهذا النظام في عام ١٠٧٢ م . وكان النظام السائد في هذه المنطقة أن يعيش الرهبان حياة النساك في صوامع منفصلة يقضون وقتهم في التأمل ولا يجتمعون معاً إلا في أوقات الصلاة المشتركة .

وهناك نظام ديري آخر ظهر في القرن الحادي عشر أقامه جماعة الأخوان الكارثوسيان **Carthusians** نسبة إلى صحراء كارتريز ، ويرجع تأسيس هذه الجماعة إلى قديس ألماني الأصل يدعى برونو **Bruno** من مدينة كلوني الذي أسس أول دير من هذا النوع في عام ١٠٨٤ م ويتميز هذا النظام الديري بالصرامة والتطرف إلى حد بعيد في حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية للرهبان داخل صوامعهم لان كانوا يعيشون جميعاً في دير واحد .

كما أسس راهب فرنس يدعى روبرت **Robert** جماعة الأخوان السسترشيان **Cistercians** حوالي عام ١٠٩٨ م ، وقد قامت هذه الجماعة من أجل الرغبة الخالصة في إصلاح الأوضاع االقائمة للأديرة ، وهذه الرغبة قد انبعثت هذه المرة من دير سيتو **Citeaux** في برجنديا الذي أسس في نفس العالم على يد جماعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا في حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت . ولم يلبث هذا الدير أن أخذ في الرقي والتقدم بسرعة بفضل القانون الذي وضعه ستيفن هاردنج **Harding Stephen** وهوإنجليزي وكان ثالث رؤساء دير سيتو . ويمكن القول بأن النظام الديري الجديد الذي عرف باسم السسترشيان كان محاولة من قبل بعض الرهبان لانتهاج طريق وسط بين النظام المركزي المطلق الذي اتبعه الدير الكلوني وبين نظام الاستقلال المحلي الذي تمثل في الدير البندكتي . ولتحقيق هذا الغرض كان رئيس دير سيتو هو الرئيسى الأعلى لأديرة السسترشيان وكانت له سلطة زيارة الأديرة السسترشيانية التي تفرعت من دير سيتو لمراقبتها والتفتيش عليها ، كما كان من حق رؤساء هذه الأديرة زيارة الدير الأم – دير سيتو وتفقد أحواله .

وعلى ذلك يتضح أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالدير الأم دون غيره من أديرة السسترشيان ، ولكن ارتباط الأديرة ببعضها كان يتأتى عن طريق اجتماع عام يعقد في دير سيتو يحضره جميع رؤساء أديرة السسترشيان لمناقشة المسائل التي تهم المنظمة ، وكان لهذا المجمع سلطة فعالة في المسائل التي تتم مناقشتها . وإذا كان ذلك هو التنظيم الإداري لهذه الجماعة فإن الغرض الذي قامت من أجله هو العودة إلى التعاليم البندكتية الأولى ، مع إدخال نوع من التنسك فيها ، وتجنب الملبس الفاخر والتمسك بالبساطة في كل شيء . وقد انقطع

اتباع هذه الجماعة عن العالم في الجهات المقفرة واختصوا برعى الأغنام وتعمير الصحاري . وانتشرت أديرتهم بسرعة في الغرب ، وأخرجت لنا عدداً من عباقرة ذلك العصر أمثال القديس برنارد **St.Bernard** الذي أسس ديره المشهور في كليرفو **Clairvaux** بفرنسا عام ١١١٥ م وظل يتولى رئاسة هذا الدير حتى نهاية حياته في عام ١١٥٣ م .

والواقع أن القديس برنارد قدم جهوداً واضحة لإعلاء شأن هذه المنطقة ، وساعد فى ذلك مميزات هذه الجماعة الواضحة ، ولعل مما ساعد على ذلك أيضاً أن القديس برنارد كان من أعظم شخصيات عصره ، وأنه كان المستشار والصديق الشخصي للبابا يوجينوس الثالث **Eugenis III** (١١٤٥ – ١١٥٣م) ، هذا فضلاً عن صلاته الوثيقة بلويس السابع **Louis VII** ملك فرنسا (١١٣٧ – ١١٨٠ م) وكونراد الثالث **Conrad III** ملك ألمانيا (١١٣٨ – ١١٥٢ م) . كما أنه لعب دوراً بارزاً في الدعوة للحملة الصليبية الثانية ١١٤٨ – ١١٤٩ م ، وأنه اقنع الملك كونراد الثالث بحمل الصليب والتوجه على رأس الجيش الألماني إلى الأراضي المقدسة .

وعلى أية حال فإنه في عهد القديس برنارد اكتمل نظام أديرة السسترشيان وتقرر أن تكون الأديرة في مناطق نائية ومتباعدة عن بعضها ، كما تقرر أيضاً أن يقوم رهبان الدير بفلاحة الأرض بأنفسهم وعدم الاعتماد على رقيق الأرض ، فاستصلحوا الأراضي البور واعتنوا بتربية الأغنام والمواشي والخيل وكان لهم شهرة واسعة في يوركشير لعنايتهم بأصواف الأغنام حتى أضحت تربية الأغنام وتجارة الصوف عماد الحياة الاقتصادية في إقليم يوركشير . أما الدير الرئيسي للمنظمة وهو دير سيترقد ألتفت حوله مزارع الكروم الشهيرة . وقد أدى هذا كله إلى ازدياد ثروة الأخوان

السسترشيان مما أدى إلى تغلب الروح التجارية على الروح الديرية وبدأ الفساد يدب في المنظمة مثلما دب في المنظمات السابقة من قبل . [٣]

الجماعات الرهبانية في القرنين الحادي عشر والثانى عشر :

من النتائج التي ترتبت على الإصلاح الكلوني أن الديرية أصبحت لها مكانة بارزة في المجتمع الغربي الوسيط وفي الكنيسة اللاتينية . وأقبل الناس على اعتناق مبادئها في أعداد كبيرة . ولما كانت أديرة كلوني لا تتسع لهذا السيل الجارف من الناس الذين اعتنقوا الرهبانية ، فقد فكر الكثيرون في إنشاء جماعات جديدة لتحتضن الفائض من الناس ولتعمل في ذات الوقت على استكمال مشروعات كلوني ، والقيام بإصلاحات جديدة . ومن أهم الجماعات الجديدة ما يلي :

١- إخوان جراندمونت : **Order of Grandmont**

تأسست هذه الجماعة ما بين عامي ١٠٧٣ ، ١٠٧٦ ، وهي تشبه إلى حد ما جماعة كلوني ، وإن كانت تختلف عنها في تحريم ملكية الأرض والكنائس والدواب على رجالها ، وفي العيش على التسول والإحسان مع التزام حياة الفقر المدقع .

٢- جماعة الإخوان الكارثوذيان : **Carthusian Order**

وقد أسسها القديس برونو **Bruno** الألمانى الأصل على الحدود الألمانية . وكان رهبانها ينزعون إلى التوحد كل في صومعته ، وإن كانوا يعيشون داخل دير واحد . وهدفهم التزام الهدوء والسكون والتأمل في ذات الله العلية .

٣- جماعة الإخوان السترشيان : **Cistercian Order**

أسسها راهب فرنسي يسمى روبرت سنة ١٠٩٨ ، وكان نظامه ينطوي على العودة إلى التعاليم البندكتية مع إدخال شيء من التصوف عليها ، وتجنب الملبس الفاخر ، والتمسك بالبساطة في كل شيء . وقد انقطع هؤلاء الرهبان عن العالم إلى الجهات المقفرة واختصوا برعاية الأغنام حتى زادت أديرتهم زيادة هائلة في وقت قصير . ومن بين جدرانها تخرج كثير من فلاسفة العصر ونوابغه أمثال القديس برنارد أوف كليرفو الذي أسس ديره الشهير في كليرفو سنة ١١١٥ .

٤- جماعة الإخوان الفرنسسكان : **Franciscan Order**

مؤسسها هو القديس فرنسيس الأسيزي **St. Francis of Assisi** وهو إيطالي من مدينة أسيزى ، أسس جماعته فيما بين عامي ١١٣٨ و ١٢٢٦ ، ولم يكن يستهدف من نظامه أن يعيش الرهبان داخل أديرتهم منكبين على الصلاة والعبادة وتخليص أرواحهم فحسب ، وإنما الاندماج في الحياة العامة للوعظ والتبشير والإرشاد بين الناس . وكانوا يكتفون بالنزر اليسير من القوت والعمل اليدوي متى كان متوفراً ، أو التسول إذا لم يكن هناك سبيل للكسب . وقد انتشرت تعاليم هذه الجماعة ، وأسست الكثير من المدارس ، وصمدت على مر القرون والأجيال حتى يومنا هذا . واقتصر عمل أعضائها الأصلي في الواقع على القيام بشؤون العلم والتعليم في مختلف بقاع الأرض .

٥- جماعة الإخوان الدومينيكان : **Dominican Order**

وقد أسسها القديس دومينيك الإسباني **St. Dominic** سنة ١٢١٥ للوعظ والإرشاد بين الناس ، ومكافحة تيار الهرطقة الذي ظهر في الكنيسة وخارجها في أخريات القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر . وهم يشبهون الفرنسسكان في تقاليدهم وفي اختلاطهم بالعالم الخارجي .

٦- جماعات الرهبان المحاربين : **Military Orders**

وإلى جانب هذه الجماعات الرهبانية التي ذكرنا أمثلة منها ، نشأ نوع آخر من الرهبان المحاربين كنتيجة للظروف التي قامت حول الحروب الصليبية . إذ أنتجت تلك الحروب نوعاً آخر هو الفرق الرهبانية المحاربة التي جمعت إلى جانب حياة التبتل والطهارة صناعة الحرب للاشتراك في ميدان القتال الجديد بالأرض المقدسة . وفيما يلي أهم هذه الفرق :

أ - جماعة الإسبتارية : **Knights Hospitallers**

وقد اجتمعوا لأول مرة عام ١٠٩٩ وكانوا رهباناً ممرضين وفرساناً محاربين .

ب- جماعة الفرسان الداوية : **Kinights Templars**

تأسست سنة ١١١٩ على نمط الإسبتارية وهم أيضاً من الرهبان المحاربين الذين اشتهروا بين العرب في سورية ومصر .

نخلص مما سبق أن نشأة الرهبنة ثم تطورها إلى الديرية ، وما استتبع ذلك من حركات الإصلاح العديدة ، وقيام جماعات الإخوان في أوروبا ، وجماعات الفرسان المحاربين في الأرض المقدسة ، كل هذا يبين ما كان لتلك الحركة من أهمية في العصور الوسطى وفي تاريخ الحضارة

الأوروبية . إذ كانت تلك الأديرة مراكز للعلم ومعاهد للتعليم ونسخ الكتب في تلك القرون الأولى من العصور الوسطى التي انتابها الظلام الحالك . كما أنتجت الكثير من المصلحين والعلماء وكبار رجال الدين الذين ملأوا العصور الوسطى صخباً وضجيجاً في شتى نواحي الحضارة . (٤)

هوامش الباب الخامس

(١) محمود الحويرى : دراسات فى حضارة أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٠٩ – ١٢٠ .

وانظر أيضاً : رؤف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية وآثارهما الإنسانية على العالم ، (مكتبة المحبة ، ١٩٧٨) .

هلستر (س. ورن) : أوربا العصور الوسطى ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى النظم والحضارة ، ص ٣١ – ٣٦ .

هلستر (س. ورن) : أوربا العصور الوسطى ، ترجمة : د. محمد فتحى الشاعر ، ص ٢٢٧ – ٢٢٩ .

(٣) محمود سعيد عمران : حضارة أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٠٤ – ١٠٨ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى النظم والحضارة ، ص ٣٦ – ٤٢ .

هلستر (س. ورن) : أوربا العصور الوسطى ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العصور الوسطى الأوروبية وحضاراتها ، ص ١٥٧ – ١٦٠ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ١١١ – ١٢٢ .

محمود الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، ص ٥٥

الباب السادس
السفراء فى أوربا العصور الوسطى

الباب السادس

السفراء Ambassadors :

إن السـفراء يختـارون مـن أفضـل رجـال الإدارة عـادة والإمبراطور يشجع هؤلاء الذين يرسلون إلى الدول المسيحية لمام محددة أو أسباب معينة دون النظر إلى الطبقة أو الخبرة ، الذين كانوا يعتبرون قادرين على أن ينجحوا فى مهامهم فى الخارج ، وتعتمد رتبتهم على أهمية دور الحاكم الذى أرسلوا إليه ، لا أحد منهم كان يرسل إلى دولة أجنبية لطبقة دائمة فكانوا يرسلون أو يتبادلون فقط عندما يتطلب الأمر سبباً محدداً بعد ثقة الإمبراطور منهم . والسفير كان يتوقع أن يكون أميناً وطاهراً وقادراً على مقاومة الفساد ومستعداً أن يضحى بنفسه من أجل الإمبراطورية إذا كان ضرورياً ، وكان يتوقع أن يعرف بعض الشئ عن الدولة التى يرسل إليها إذا أمكن ذلك مثل لغتها ، وأن يكون شخصاً موثوق فيه . وكان السفراء الذين يذهبون للخارج يحملون معهم السلوك والأمن ورسائل ، على العكس من الرتب الأقل الذين كانوا يحملون رسائل . ولقد كان السفراء كلياً وجزئياً مملوئين بالقوة وكانت الدولة تغطى توسعهم فى الأماكن التى تناسبهم .

ويمكن أن تكون للسفارات إلى حد ما كبيرة وبها الكثير من المفسرين (الموظفين والخدم) . كان هناك جانباً من مهامهم أن يجمعوا الأذكياء من الدول التى يزورونها .

هوامش الباب السادس

(1) No: Art. AmBassadors, PP. 75, In the Oxford Dictionary of Byzantion, (New York Oxford, 1991)

الباب السابع
الطب فى أوربا العصور الوسطى

الباب السابع

الطب فى أوربا العصور الوسطى

كانت جامعة ساليرنو Salerno المدرسة الطبية الرئيسية فى أوربا العصور الوسطى ، وهناك بلد بها امتزاج ثقافى قوى كان العلماء قادرين على الاغتراف من التراث الإسلامى والبيزنطى ، وبصفة عامة كان علم الطب فى العصور الوسطى مزيجاً عجيباً من الملاحظة الخرافية البدائية ، فمثلاً نجد النصيحة التى تقول أن على المرء ان يأكل ويشرب باعتدال فى حين نجد أيضاً أن البصل يعالج الصلع وأن بول الكلب علاج رائع للثولول Warts ، ربما تكون السنطة .

وأن كل ما يجب أن يفعله المرء من أجل منع المرأة من الحمل هو ان تعصب رأسها بقطعة من القماش الأحمر اللون ، ومع ذلك ففى وسط هذا الهراء فلقد تم إحراز تقدم فى الطب فكتابات جاليوس Galen الشهير الذى فى القرن الثانى الميلادى تمت دراستها واستيعابها ، فهى عبارة عن مزيج من المعرفة الطبية الأصلية وبالمثل المؤلفات المهمة لعلماء العرب فى الطب ، ويضاف إلى هذه المجموعة النفسية من المعرفة الموضوعات مثل الخصائص العلاجية للنباتات وعلم التشريح الخاص بالجسم البشرى ، ومن المحتمل أن علماء ساليرنو فى القرن الثانى عشر قاموا بإجراء تشريحات للحيوان والإنسان ، وعلى الرغم من أن تجارب هؤلاء الأطباء كانت مختلفة وبدائية فإنهم وضعوا الأسس العامة لنهضة العلوم الطبيعة فى غرب أوربا . (١)

فى هذه البلاد المليئة بالخواء السياسى انتشرت المسيحية فى صيغتها اللاتينية ، وكان المبشرون الدينيون فقط هم القادرين على قراء كتب

الأقدمين ودراسة الأمراض وكيفية علاجها ، ونلاحظ من خلال اختيار الكتب المتاحة للرهبان فى مجال الطب أن الطب لم يكن يشكل فرعاً مستقلاً من فروع المعرفة ، لكنه يندرج فى إطار ثقافة رسمية عامة وينتمى إلى نظره شاملة للكون واقعية رحبة يندمج بداخلها الإنسان معافى كان أم مريضاً .

وبعد ظهور الرهبنة فى أعقاب تبشيرية سان بنوا نيرسى Saint Benoit de Nursie فى القرن السادس تزايدت عزلة المعرفة داخل مجتمع الأكليروس ، وبينما كان رجال الأكليروس العلمانى وحتى الأساقفة أنفسهم قليلى المعرفة ، نجد فى هذه الأديرة رجالاً قادرين على قراءة وكتابة وتأويل نصوص يعالج بعضها الطب ، إلا أن هذا الطب لم يكن يشكل خلال ما يقرب من ثلاثة قرون سوى طب نقلى خل من الإبداع .

كان الرهبان فى الأديرة وأحياناً فى بلاط الأمراء يعرفون الطب كما يعرفون اللاهوت والرياضيات والنبات أو العمارة وكمستغلين لهذا العلم لمصلحتهم اهتموا بالسياسة والإدارة قدر اهتمامهم بالتعليم الدينى ومثلما أصبح الإنجليزى ألكن Alxuin المستشار النشيط لشرلمان ، احتوت أديرة البنديكيت فى كل أوربا الغربية عقولاً نابهة ففى ورموس Wearmouth بإنجلترا حاول بد المبجل تقنين الفصاد ، وفى ماينز Mayence قام رابان مور Saint Martin de Tours . كما يمكننا ذكر أسماء رهبان آخرين فى سان جال ، وإينزدلن Einsiedeln وكانتربى Canterbury أو مارومتييه Marmoutier أو الأسقف فولبير دو شارتر Fulbert de Charttres . (٢)

منذ بداية الرهبة المسيحية فى القرن السادس كرست الأديرة نفسها للدراسة والصلاة والأعمال اليدوية وكذلك لمساعدة الفقراء والمحرومين وهو

ما تأمر به تعاليم السيد المسيح لهذا خصص كل دير من الأديرة إحدى منشآته كمستشفى .

وحقيقة من العصب أن نميز هذه المنشآت كمستشفيات إذا إنها تبدو أقرب إلى النزل (الفندق) ، فهى تؤوى من المرضى المقيمين بالقرب منها اقل مما تؤوى من المسافرين وبخاصة الحجاج الذين يجدون فى هذه الأديرة ملاذاً أكثر أمانً من فنادق الطرق الكبرى حتى الأغنياء أنفسهم يصحبهم خدمهم وحرسهم كانوا يقصدونها من أجل المبيت والدفء المجانين .

ونحن نعرف حكايات الحجاج الذين كانوا ينطلقون من بلاد الغال ويذهبون لممارسة طقوس الاعتراف والتناول أو بحثاً عن الشفاء سواء فى روما حيث يوجد قبر سان بيير Saint Pierre أو فى القدس حيث يوجد قبر سان سبيلكير Sanint Sepulcre حتى بعد أن وقعت فلسطين فى ايدى المسلمين سنة ٦٣٨ وقد شجعت العلاقات التجارية بين طرفى الأبيض المتوسط ثم الحروب الصليبية على تدفق هذه الرحلات سواء الدينية منها أو العلاجية وذلك بفضل المكاتب السياحية الجيدة التنظيم .

ثم فى العصر الوسيط الأعلى أصبحت عبارة رفا' القديسين الخارقة طقساً كاثوليكيا ذائعاً امتلأت الأديرة والكنائس ببقايا القديسين المحليين التى اجتذبت المرضى والعجزة والنساء الحبلى مثلما اجتذبت العواقر منهن ، وقد وجدت فيها المؤسسات الدينية وسيلة ذات عائد كبير لأن الفائدة التى كانت تعود من الاستضافة كانت تضم إلى التبرعات الدينية ، ومع بداية القرن العاشر كان الحج الأكثر شيوعاً بالإضافة إلى الحج إلى روما هو الحج إلى القديس جاك دو كومبوستل Jacques de Compostelle فى جاليس Galise ، حيث اكتشف كما قيل رفات يوحنا الرسول وفى الحال أرغم المسلمون على إخلاء المنطقة .

شق الحجاج من كل أوربا من الطرف الأبعد من فريز Frise ومن إنجلترا طرقهم نحو جاليس على طرق معبدة بشكل جيد قاصدين مقدسات جديدة خاصة بالتوسل ونزل نحصى منها عدة مئات وفى عشية عصر النهضة انقطع التردد على هذه المستشفيات التى تنتشر على جانبى الطريق والتى قل الاعتناء بها . هكذا ضم الرهبان اهتماماتهم الطبية إلى مآثرهم الجليلة كان الكثير من الرهبان يزرعون فى قطع الأرض الصغيرة التى تحيط بالأديرة أنواعاً نادرة من النباتات التى حبتها الطبيعة قيمة علاجية ، وتمثل هذه الحدائق الصغيرة بداية الحدائق النباتية والدوائية الأولى التى اعتمدت على الكتب القديمة اليونانية والعربية .

كـــذلك أنشـــأت الجمعيـــات الدينيـــة المستشـــفيات الحضـــرية اشتقاقيا ، وقد استقبلت هذه المستشفيات من الضيوف أكثر مما استقبلت من المرضى كما كانت تؤوى الفقراء الذين لا مأوى لهم والمحرومين والمختلين عقلياً فإذا ما سقط أحدهم مريضاً استدعوا لـه الطبيب أو الجراح ، لم يكن لهـذه المنشـآت أهـدافاً علاجيـة أو تعليميـة إذ أن الـروابط التـى تصـلها بالجامعات المحلية فى المدن الكبرى كانت غاية فى الندرة .

نلاحظ إذن أن عبارة رفاة القديسين والشهرة التى حازتها بعض المقدسات تخلد داخل الطقوس المسيحية العبادات الوثنية القديمة التى كانت تكرس للأبطال المعالجين ، إذا نجد أن سان كوم وسان داميان قد حلا محل كاســـــــتور وبولـــــــــو . وبالمثـــــــــال ، ونهوضـــــــــاً على الجذور المقدسة للغاليين Gaulois تزهو الكنائس التى يحمل إليها المؤمنون نذرهم المخصصة لالتماس المعجزات أو الشكر على الشفاء .

سحر ودين وجداً معاً فى كل طبقات المجتمع إلى جوار الممارسات الطبية التى لم تكن قد أخذت طابعها المميز بعد .

لا نستطيع أن نلقى باللوم على الأطباء الذين عجزوا عن إيقاف الأمراض التى لم نستطع نحن بعد ألف سنة أن نسيطر عليها . فالجذام مثلاً كان شائعاً فى أوراسيا فى العصر الوسيط ، أما الجدرى فيمثل واحداً من الأمراض الشديدة القدم فحتى اكتشاف التطعيم الخاص به فى بداية القرن التاسع عشر ثم اختفائه فى سنة ١٩٧٧ كان الجدرى واحداً من أشد الأمراض فتكاً بالجنس البشرى ، ففى العصور الوسطى شن الجدرى حملات عنيفة قصيرة فاتكاً بالأطفال والعجائز على نحو خاص ، ومع الوقت أصبح مرضاً متوطناً وكارثة محتومة اعتادها الناس .

كذلك نفذ الطاعون هجمات مذهلة تاركاً فى ذاكرة البشرية ذكريات أكثر مأسوية من تلك التى تركها الجدرى فالطاعون السود الذى نعرفه اليوم ينتقل عن طريق البراغيث ويظهر فى صورة بقع سوداء صغيرة حول الدغة ، ويتبع ذلك انتفاخ الغدد الليمفاوية الموجود بالعنق وثنيات الفخذين وتحت الإبط وينتهى بموت المريض خلال عدة ايام ، أما إذا أصيب شخص سليم الجسم عن طريق الرذاذ المتطاير من لعاب مريض بالطاعون فإن المرض يفتك به على نحو أسرع وربما فى اليوم نفسه .

كان الطاعون قد شن هجوماً قاسياً فى القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور جوستنيات وحتى لا ننسى قادماً من آسيا الوسطى دق أبواب البحر الأسود ثم القسطنطينية وسوريا قبل أن يصل إلى ميسين Messine ومارسيليا فى سنة ١٣٤٨ ، شق الطاعون طريقه عبر منافذ الاتصال المهمة مصيباً أوروبا كلها حتى اسكندرافيا وموسكو ويقدر ضحاياه بحوالى ثلث أو ربع سكان أوروبا خلال سنوات قليلة ناشراً الرعب فى كل مكان مهلكاً مجتمعات كاملة ، كما اختفت قرى باسرها من على وجه الأرض أخلت هذه المجزرة بالتوازن بين المدن والدول وقلبت النظم الاجتماعية مهلكة

القسم الأكبر من العائلات وخلقت طبقة من الأغنياء الجدد ودفعت الناس إلى الهجرة من المدن والقرى إلى المناطق الغنية التى لم تصب بشدة كما عدلت من جهة أخرى كل الخطوط التجارية .

إضافة إلى الأمراض التى نكابدها ونكابد مضاعفاتها بما فيها الموت مثل الحصبة والنكاف عانى سكان هذه المرحلة الأمراض الناتجة عن سوء التغذية فسوء وسائل المواصلات والتخزين لم تكن تسمح لهم بالتغلب على الاختلافات الكبيرة فى الإنتاج الزراعى بين منطقة وأخرى والناتجة عن تقلب الطقس لدرجة أن المجاعات كانت تحدث بشكل منتظم لم يكن الغذاء يحتوى على كل المواد الضرورية لحياة الكائن وأدى النقص فى بعض الفيتامينات إلى العديد من الأمراض مثل الأسقربوط والكساح وضعف مقاومة الجسم البشرى للأمراض المعدية . (٣)

أما بالنسبة للأوربيين الذين قدموا إلى الشرق على عصر الحروب الصليبية حيث كان الطب واحداً من العلوم التى نبغ فيها المسلمون يدل على الفروق الحضارية الواضحة بين المسلمين والصليبيين ، وتكاد تنعدم معلومات الصليبيين عن الطب فى ذلك الوقت ، شأنهم فى ذلك شان الأوربيين فى الغرب الأوروبى ، وذلك بسبب الجهل وتزمت رجال الدين فى العصور الوسطى حتى اعتبروا المرض نوعاً من الجزاء أو العقاب الإلهى لا يصح للإنسان أن يعالج أو يبرأ منه ، فإذا حدث أن انتابت أحدهم حمى هرع إلى أقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظراً حدوث معجزة تشفيه ، والثابت أن السادة اللاتينيين فى القرن الثانى عشر فضلوا الأطباء المسلمين أو اليهود على أطباء الغرب الأوروبى ، وما أوردوه أسامة بن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنجة للطب ، تدل على جهلهم بأبسط المبادئ الطبية ، فقد قال " ومن عجيب طبهم (الفرنج) أن صاحب المنيطرة كتب

إلـى عمـى يطلـب منـه إنقاذ طبيـب يـداوى مرضـى من أصـحابه ، فأرسـل لـه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ، فقال : أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ، فجاءهم طبيب افرنجى فقال لهم : احضروا لـى فارساً قوياً وفأساً قاطعاً : فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : " اضرب بالفأس ضربة واحدة اقطعها " فضربه ، وأنا أراه ضربه واحدة ما انقطعت ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : " هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : " الشيطان قد دخل فى رأسها " فأخذ الموس وشق راسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها . فقلت لهم : " بقى لكم حاجة ؟ " ، قالوا : " لا " فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه " . وفى ذلك المجال يروى أسامة أيضاً قصة عن عجائب الطب لدى الفرنجة قائلاً : " ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبون William of Bures صاحب طبرية وكان مقدماً فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية وأنا معه فحدثنا فى الطريق قال : " وكان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ ، فقال : " نعم " ، ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حـــــــــــــط يـــــــــــــده عليـــــــــــــه عوفى ، فلما رآه قال : " أعطونى سمعاً " فأحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الأصبع ، وعمل كل واحدة فى جانب أنفه فمات الفارس

فقلنا لـه : " قد مات " ، قال : " نعم " كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح " .

ولـم يحـاول الأطبـاء الصـليبيون محاولـة أطبـاء جنـوب إيطاليـا فـى الاستفادة شيئاً من الطب المحلى ، وطريقة التداوى المنظم التى استردت بعض جذورها من الشرق الإسلامى ، على الرغم من أن ستيفن الأنطاكى قام سنة ١٢٢٧ م بترجمة كتاب " كامل الصناعة الطبية " من العربية إلى اللاتينية الذى ألفه على بن العباس المجوسى (ت ٩٩٤ م) ، وكان الأفرنج يضيفون إلى أسمه " القديس " ، ولم يعرف كتاباً غير هذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية على أيام الحروب الصليبية ، وبطبيعة الحال لم يكن الفرنجة بحاثة أو رجل فكر مما أدى إلى أن تصير كمية الترجمة من العربية إلى اللاتينية فى فلسطين وسوريا بالغة الضآلة بشكل يبعث على الدهشة .

هذا بالإضافة إلى أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية إلى اللاتينية أصبح شبه جزيرة أيبريا حيث ازدهرت حضارة العرب وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون ومن ثم اتجه كثير من أعلام النهضة الأوروبية فى القرن الثانى عشر إلى أسبانيا يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية . (٤)

هوامش الباب السابع

(١) هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة : د. محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة ، ١٩٨٠) ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) سورنيا (جان شارل) : تاريخ الطب ، ترجمة : د. إبراهيم البجلاتى ، (الكويت، ٢٠٠٢) ص ٩٦ – ٩٨ .

(٣) سورنيا _(جان شارل) : المرجع السابق ، ص ١٠٥ – ١٠٩.

(٤) محمود محمد الحويرى : الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام ، (القاهرة ، ١٩٧٩) ، ص ٢٢٩ – ٢٣١ .

رنسيمان (ستيفن) : الحروب الصليبية ، ترجمة : السيد الباز العرينى ، جـ٣ ، ص٨١٩ .

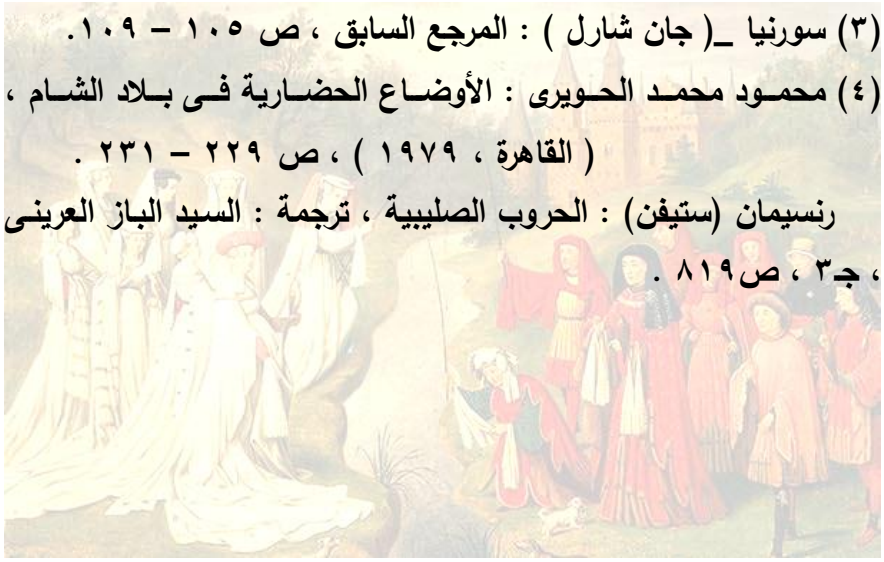

الفصل الثامن
حضارة مملكة الخزر اليهودية

اختلف الباحثون في تاريخ دولة الخرز علي الرغم من قلة الدراسات في هذا الموضوع فمنهم من عرفها بالمملكة وغيرهم عرفها بالإمبراطورية او الدولة القبيلة ومنهم من وضع اسم الخرز في صدر دراسته دون تحديدها بشكل معين ومرجع ذلك إلي ان الإحداث التاريخية المتوفرة عن الخرز وتركيبتهم الاجتماعية والسياسية تطورت من فترة إلي أخري علي مراحل تاريخهم ولم يأخذ شكلا محددا بصورة نهائية وعندما تكاملت البنية الاجتماعية لشعب الخرز أخذت شكل الدولة بعد ان كانت مجموعة قبائل متفرقة وأصبح للخرز مملكة نعمت بنعمة الاستقرار علي عكس بعض الشعوب الأوربية في العصور الوسطي التي كانت صاحبة تجوال وترحال ومع بداية القرن السابع الميلادي أو قبل ذلك بقليل عاش الخزر أزهي عصورهم حيث تغيرت أحوالهم وتحولوا الي شعب حضاري ، امتهن حرفة التجارة واعتنق الديانة اليهودية ، وكان لهم تنظيمهم السياسي المنفرد وجيشهم وقضائهم ولغتهم ومجتمعهم المتميز .

ومن ثم فنحن نقرأ في مادة خرز ***chazzar*** بدائرة المعارف اليهودية عبارة تقول لقد نعم الخرز بجميع امتيازات الأمم المتحضرة ، تشريع متقن ، حكومة متسامحة ، تجارة منتعشة وجيش مدرب علي أهبة الاستعداد في الوقت الذي ران فيه التعصب والجهل والفوضى علي أوربا الغربية كان يحق لمملكة الخزر أن تفاخر بحكومتها العادلة الواسعة الأفق.

التنظيم السياسي :

قام التنظيم السياسي الخزري أساسا علي الملكية أو الخاقانية وقد بط لنا الرحالة والجغرافيون هذا الأمر فابن فضلان يقول في هذا الشأن فأما ملك الخزر ، واسمه خاقان ، فانه لا يظهر إلا كل أربعة أشهر متنزها ، وقال له خاقان الكبير

اما ابن رسته فيقول كان للحرب ملك يقال له ايشا والملك الأعظم مما هو حرر خافاش وليس له من طاعة الخزر الا الاسم ومقدار الأمر علي ايشا اذ كان في القيادة والجيوش بالموضع الذي لا يبالي معه يأخذ فوقه ورئيسهم الأعظم علي دين اليهودية وكذلك ايضا ومص يميل ميله من القواد والعظماء .

ويذكر المسعودي قائلاً : وليس اخبارنا عن ملك الخزر يريد به خاقان وذلك ان للخزر ملكا يقال له خاقان ورسمه أن يكون في يدي ملك أخر وهو وغيره فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ولا الخروج من مسكنه معه حرمه لا يأمر ولا ينهي ولا يدبر من أمر المملكة شيئا .

اما الاصطغري وابن حوقل فيقولان في هذا الصدد واما سياستهم وامر المملكة بهم فان عظيمهم يسمي خاقان خزر وهو أجل من ملك الخزر الا ان ملك الخزر هو الذي يقيمه في موضع اخر يذكران ملك الخزر يسمي بلسانهم بك ويسمي أيضا باك .

اما الكرديزي فيقول ان للخزر ملك عظيم يسمي الشاد كما ان لهم عظيما اخر يسمي خاقان الخزر وليس له الا الاسم فقط ، اما مدار شغل الولاية والحشم فهو علي الشاد وليس هناك انسان اعظم منه مطلقا .

وعند تقليب هذه الروايات علي وجوهها نخلص منها الي وجود شخصين في مملكة الخزر يقومان بأعباء الحكم الأول الخاقان والثاني نائبه ويتضح من تلك الروايات أيضا ان نائبه كان صاحب السلطة العليا والفعلية في البلاد وكانت له مقاليد التصرف المطلقة في كل ما يتعلق بالمملكة ، كما كانت له السيادة والمهابة .

علي ان هناك بعض الملاحظات علي تلك الروايات السابقة . اذ نجد المصادر السابقة تختلف فيما بينهما بشأن لقب ملك الخزر ونائبه فعلي سبيل المثال يطلق ابن فضلان علي ملك الخزر لقب خاقان الكبير وعلي نائبه خاقان بك في حين ان المسعودي يطلق عليه خاقان وعلي نائبه ملك والأصطخري

يطلق عليه خاقان خزر وعلي نائبه ملك الخزر كما يطلق عليه بك أو باك اما ابن وسته فيطلق عليه خزر خاقان وعلي نائبه ايشا والكرديزي يطلق عليه خاقان الخزر وعلي نائبه الشاد .

ويبدوا ان كلمه شاد ليست تركية الأصل وهي الي حد كبير وردت علي الخزر من الخارج ، فهذه الكلمة علي ما يبدوا هي الصورة القديمة لكلمة شناه الفارسية التي تعني الملك وحرفت عندما استخدمها الخزر الي هذا الشكل .

ولكن الشيء المفروغ منه ان الحكم بمملكة الخزر كان يتقاسمه شخصان قاخلان وان لم تلمس ذلك أو نجد دلالة واضحة من ازدواجية الحكم في استعراضنا للحروب الطويلة التي دارست بين الخزر والمسلمين .

علي ان ظاهرة الشخصين اللذين يقومان بأعباء الحكم بمملكة الخزر أو المساهمين تلمسها بشكل واضح بين الشعوب التركية الأخرى كالقراخائية ***Qarakhanid*** وكذلك نجد لها نظائر في ابيوطة الإغريقية قديما واليابان في العصور الوسطي أيضا كان هناك في الحكم الشوجن ***shogun*** والميكادو ***Mikada*** والحقيقة ان وجود شخصين علي رأس الحكم بمملكة الخزر يدفعنا إلي القول انه ربما كان للخزر عقلية تفرق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية.

اما عن العلاقة بين ملك الخزر ونائبة وعن مراسم الخاقان فقد كان هذا النائب يدخل في كل يوم إلي خاقان الكبير متواضعا يظهر الإخبات والسكينة ولا يدخل عليه الا حافيا وبيده حطب فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك علي سريره عن يمينه ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشيفر كما أن هذا الملك الخاقان يعظم ويسجد له كل من يدخل عليه ولا يصل إليه احد إلا نفر يسير مثل الملك نائبه ومن في طبقته ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثه ، فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالتقرب وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان فلا يراه احد من الأتراك ومن يعاقبهم من أصناف الكبر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيما له وكان منصب الخاقان

مقصورا علي أهل بيت بأعبائهم من قديم الزمان الخاقانييه الا لم يدين باليهودية وكانت مدة حكم ملكهم أربعين عام إذ جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته وقالوا هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه إي إن الفترة المحددة لحكم الخاقان هي السبيل الوحيد لإقصائه وليست صيحة الشعب واستيائه .

اما عن مراسم تنصيب الخاقان بمملكة الخزر فيذكر المسعودي قائلا ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته ومعه في حيزه فإذا أجدبت أرض الخز راو نابت بلدهم نائبه أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم أو فاجأهم أمر من الأمور ، نفرت الخاصة والعامة الي ملك الخزر فقالوا له قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه وقد تشاءمتا به ، فاقتله أو سلمه الينا نقتله فربما سلمه اليهم فقتلوه وربما تولي هو قتله ، وربما رق له فدافع عنه ، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه ويعقب المسعودي بأن ذلك رسم الخزر في ذلك الوقت ولا يدري افي قديم الزمان كان ذلك ام حدث .

والخزر اذا أرادوا ان يقيموا هذا الخاقان جاءوا به فيخترقه بحريره حتي اذا قارب ان ينقطع نفسه قالوا له كم تشتهي مدة الملك فيقول كذا وكذا سنة فان مات دونها وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة والحقيقة ان تلك الصورة الخاصة باحتفالات لتصيب الخاقان عند الخزر وما يصاحبها من طقوس غريبة لنشر الغرابة والدهشة ولا ندري هل تحري المؤرخون المسلمون الدقة في عرضهم لهذا الموضوع ام ان هذا الموضوع يعتبر في حكم العادي اذا نظرنا إليه بروح العصور الوسطي ولم ننظر إليه بروح العصر الحاضر .

اما مراسم دفن الملك فقد كانت أغرب مما سبق حيث ان رسم الملك الأكبر اذا مات يبني له دار كبيرة فيها عشرون ويبني ويحفر له في كل بيت منها قبر وتكبر الحجارة حتى تصير مثل الكحل ، وتفرش فيه وتطرح النورة فوق ذلك وتحت الدار نهر ، والنهر كبير يجري ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام وإذا دفن ضربت

أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت ويسمي قبره الجنة ويقولون قد دخل الجنة وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب وإذا مات ودفن لم يمر احد بقبره إلا ترجل وسجد له ولا يركب حتى يغيب عن قبره ويبدو ان الملك كان يعامل معاملة الإله من حيث القدسية والطاعة العمياء من قبل رعاياه ويؤكد ذلك انه بلغ من طاعتهم لملكهم ان احدهم وربما وجب عليه القتل ويكون من كبرائهم وكان الملك لا يريد قتله علي الملأ فيأمره ان يقتل نفسه فيذهب إلي منزله ويقوم بقتل نفسه .

ولقد تشكك المؤرخ المحدث يبوري في اقوال الجغرافيين المسلمين في القصص والمحبة التي أوردوها والمصادر التي اعتمدوا عليها والحقيقة ان ما يؤخذ علي المؤرخين المسلمين المعنيين بالخزر أنهم ركزوا اهتمامهم علي الأشياء الغريبة العجيبة فقط دون غيرها . ومن المحتمل أنه لو صحت تلك العادات عند الخزر فإنها ربما تولدت عندهم من ماضيهم القبلي الذي كانت تكشفه الهمجية .

وفي الرسالة التي بعث بها الملك يوسف ملك الخزر في القرن العاشر الميلادي الي حسداي وزير خارجية الخليفة الأموي بالأندلس عبد الرحمن الثالث ٣٠٠-٣٥٠/٩١١-٩٦١هـ والذي تعرض فيه لنواحي كثيرة بمملكة الخزر نجدها خالية ما عما عرضته المصادر الاسلامية الأمر الذي يدفعنا الي القول ان المراسيم والعادات والتقاليد التي لازمت الخزر في فجر ظهورهم قد نالتها يد التغير والتبديل بعد اعتناقهم الديانة اليهودية .

ولا تدل المصادر المتاحة لدينا علي اختيار الخزر لملوكهم كان عن طريق الانتخاب الشعبي او اعلان الموافقة علي ما اختاره زعمائهم أو عن طريق العنف والغدر والاغتيال والمطلع علي الخطاب الذي أرسله الملك يوسف الي حداي يجد أنه اورد قائمة باسماء الملوك الذين سبقوه ، وقد بدأ يذكر الملك عبدية ***Obadiah*** الذي خلفه ابنه هيزيكياه ***Hezekiah*** الذي خلفه ابنه

مانشه ***Manasseh*** وقد خلف اسحاق ابنه موسى ***moses*** أو مانشة الثاني والأخير خلف ابنه نيسي ***Nisi*** الذي خلف ابنه أرون الثاني ***Aron II*** ثم الملك يوسف ***Joseph*** كان فضه ابن الملك أرون وارتقي العرش طبقا للقانون الخزري الذي يعتبره خليفة والده وبذلك يتضح ان طريقه الصول والي العرش في مملكة الخزر كان عن طريق النظام الوراثي .

وكيفما كانالأمر فقد كشفت تلك المعلومات عن أسلوب اختبار الخزر لملوكهم والمراسيم المختلفة التي كانت تجري في بلاطهم ويتضح ذلك فيما أورده المؤرخ والإمبراطور البيزنطي قسطنطين بورفيروجينيتوس لقد ذكر أن خاقان للخزر كان يتمتع بمكانه طيبة في البلاط البيزنطي وكانت الرسائل الدبلوماسية التي كان يرسلها البلاط الإمبراطوري الي خاقان الخزر تحمل سمات الاحترام والتقدير فالرسائل التي كان يبعث بها البلاط البيزنطي الي حكام مصر وسردينيا وسائرنو وكابوا ونابولي وروما وابلغار وغيرهم كانت ترسل مختومة ومذهبة بختم يساوي عملة ذهبية واحدة صولدي اما الرسائل التي كانت ترسل الي ***Inisoldai*** الأمر الذي يدل – كما سبق القول علي أن خاقان الخزر كان يتمتع بمكانة رفيعة في البلاط البيزنطي .

القضاء :

من المتعارف عليه أن السلطة القضائية تكون منفصلة عن السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والقضاء لا يحكم وفقا لرأي الحاكم وانما يحكم وفقا لنظام أو شريعة معينة يستند اليها .

ويوضح لنا المسعودي الوضع القائم في مملكة الخزر قائلاً : ورسم دار مملكة الخز ران يكون فيها قضاة سبعة اثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية وواحد منهم للصقلية والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا

عقلية فإذا ورد عليهم مالا علم لهم من النوازل العظام اجتمعوا إلي قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلي ما توجبه شريعة الإسلام .

ويتضح مما سبق ان النظم القضائية للأديان المختلفة في هذه المملكة كانت كل منها منفصلة عن الاخري فكان المسلمون يحكمون بين الناس علي أساس أحكام القران الكريم والنصارى علي أساس إحكام الإنجيل والخزر الذين تهودوا علي أساس إحكام التوراة ويصبح أيضا من عدد القضاة وتوزيعهم ان أصحاب الديانات الوثنية هم اقل الفرق بالمملكة كما ان تصريف شئون العدالة في تلك المجتمعات كان يتم بصورة عادلة أمام محاكم عادلة وكان لأي مواطن خزري الحق في ان يرفع دعوي علي خصمه ومن هنا كان علي الخصم ان يمثل إمام المحكمة التي تخصه من المسلمين او النصارى أو اليهود او الوليين ويجري الاقتصاص منه ومما يدل علي صحة ما أورده المسعودي إننا لم نسمع عن إي اضطهاد ديني قام به الخزر ضد أصحاب الديانات السماوية بل كانت مملكة الخزر في الحقيقة مأوي وملجأ للمضطهدين دينيا من اليهود كما ظهر جلبا العدالة في توزيع القضاة علي طبقات المجتمع الخزري والشيء الملاحظ هنا ان قضايا النزاع التي كانت تنشب بين مسلم واخر غير مسلم كانت تحال الي المحاكم الإسلامية ليجري الفصل فيها وفقا للشريعة الإسلامية فمثلا اذا جري قيام دعوي قضائية بين مواطن مسلم ومواطن نصراني أو مواطن يهودي وأخر من هاتين الطائفتين فان ذلك يحال الي المحاكم الإسلامية وحدها .

والي جانب ذلك فقد كان الملك الخزر دور قضائي فقد نهض بمهمة الاستماع الي الدعاوي القضائية والفصل في المنازعات ويقول الأصطخري وللملك سبعة من الحكام (القضاة) من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان ، إذا عرض للناس حكومة قضي فيها هؤلاء ولا يصل أهل الحوائج إلي الملك نفسه ، وإنما يصل إلي هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء –

وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه ، فيرد عليهم أمره ويطعونه .

ومما يبعث علي الدهشة ما أورده ابن حوقل عن الأحكام القضائية بقوله وما جري في احكام الملك من أشياء كالخرافة ومنها ما حكاه المعتضد وقد ذكر بين يديه فازداره ذاكره فقال المعتضد كلا انه لمروي عن النبي صل الله عليه وسلم انه قال الله جل اسمه ولم قول رجلاً قوما إلا وأيده بضرب من التسديد وان كان كافرا .

ومن ظريف ذلك أن رجلا من أهل خزران كان له ولد وقد تصرف في التجارة ومهر في الأخذ والعطاء فأخرجه الي بغار الداخل ولم يزل يجهر عليه التجارة ، وتبني بعد اخراج ابنه عنه عبدا كان له فخرجه وبصره فحسنت بعيرته فيما ندبه له من خدمة الأب إلي ان هلك الرجل وأقبل الابن علي الجهاز ولم يعلم بصوت أبيه والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عرضا مما يرد إلي هو اكتب الابن الغلام لينفذ اليه الجهاز علي رسمه فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما يده ويقبض منه ما لأبيه عنده . فورد علي الابن ما اسر عنده إلي مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك والحجاج بالبينات فكان اذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافيا من الحجة جاء الأخر من الشبه بما وقف حاله وأكثر إحكامهم مبني علي مثل ذلك .

ويستمر ابن حوقل قائلا وطال بهما التنازع حولا كاملا واذ طالت الخصومة وصار الأمر في التشاجر والمنازعة إلي حال الوقوف اتلي الملك بين الخصمين ، فجلس لهم وأحضر جميع الحكام وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة ، فلم ير الملك لأحدهما علي الأخر سبيلا لتكافؤ البيانات عنده . فقال الملك للابن أتعرف قبر أبيك علي الحقيقة ، فقال عرفته ولم اشهد دفنة فاحقة . فقال للغلام المدعي أنت تعرف قبر أبيك فقال نعم أنا توليت دفنه ، فقال علي منه برمة ان وجدتموها ، فاتي الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه البالية

. وجيء بها إليه . فقال للغلام المدعي بنوة التاجر أفصد نفسك ففصد ثم أمر فالقي دمه علي العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشيء منه ، وفصد الابن وطرح دمه علي ذلك العظم فنشفه وعلق به فأدب الغلام وعزره ودفعه وماله إلي الابن .

والحقيقة ان تلك القصة رغم ما يكتشفها من مبالغة إلا أنها تبين ان الخرز احتفظوا بعادات بدائية تخلفت عندهم من ماضيهم القبلي وهذه الطريقة التي اتبعها الملك يمكن ان نطلق عليها طريقة التحكيم الإلهي وهي وسيلة لمعرفة ما اذا كان المتهم بريئا او مجرما وهي أيضا ممزوجة بالطقوس الدينية لأن مسئولية إثبات دليل البراءة او الذنب ترجع عندئذ إلي الإله ولا شك أنهم كانوا يلجئون إلي تلك الطريقة بعد استنفاذ جميع الوسائل الدالة علي أدانه المتهم او أخفاقة في إثبات دليل براءته ومهما يكن من أمر فان رواية ابن حوقل تحملنا علي الاعتقاد بان حكم الملك كان ساريا علي الطبقات المختلفة التي شكلت المجتمع الخزري وتوضح أيضا انه كان من واجبات الملك الخرزي الفصل في المنازعات والخصومات وان إحكامه كانت ملزمة واجبة النفاذ لا تقبل المعارضة او المداومة او الطعن في الحكم او الاستئناف العالي وربما مرجع ذلك إلي ان المفاهيم الأخيرة لم تكن سائدة ومعروفة في ذلك الوقت .

علي ان المصادر المتاحة بين أيدينا عجزت عن إمدادنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بالقوانين المختلفة المختصة بكيفية معالجة القضايا المختلفة .المتعلقة بالاعتداءات والوراثة أو تقسيم الملكية أو الزواج والطلاق وغيرهما من المسائل الأخرى .

الجيش :

لا شك ان دولة كدولة الخزر تقع في موقع استراتيجي في شرق أوربا بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الاسلامية والعديد من الشعوب القاطنة في

شرق أوربا كان عليها أن تعمل لتلك الشعوب وكان لابد من وجود جيش قوي علي أهبة الاستعداد أو يتصف بالكفاية والدراية بفنون الحرب يحرسها ويتبعها . وسبق القول ان المصادر الإسلامية أوضحت انه كان علي رأس مملكة الخزر شخصان أحدهما كان يعامل معاملة القدسية وليس له من الأمر شيء وهو الملك والثاني نائبه الذي كان عليه تدبير المملكة من قيادة الجيش الي ادني الأمور بالمملكة ولكن يبدوا ان للخاقان الكبير دور بالنسبة للأمور الخطيرة كإعلان الحرب وإذا ركب هذا الملك الكبير بكبت سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل فلا يراه أحد من رعيته الا خر لوجهه ساجدا له لا يرفع رأسه حتى يحوزه وبذلك كان الملك الأكبر لا يخرج إلا إذا تعرضت الدولة الخزرية لخطر عظيم من أعدائها .

أما عن التشكيلات والتجهيزات الحربية وأسلوب قتال الخزر في الحرب فنجد ذلك في نص ابن رست هاذ يقول وهم يغزون البجناكية في كل سنة وايشا (نائب الخاقان) هذا يتولي الخروج بنفسه ويخرج في مغازيه بعساكره ولهم جمال ظاهر وإذا خرجوا في وجه من الوجوه خرجوا بأسلحة تامة محلاة وأعلام طرادات وجواشن محكمة وركوبه في عشرة آلاف فارس ممن هو مرتبط اجري عليهم ، وفيهم من قد وظف علي الأغنياء وإذا خرج لوجه من الوجوه هيئ بين يديه مثل شمسه علي صنعة الدف يحتمله فارس يسير به أمامه ، فهو يسير وعسكره خلفة يبصرون ضوء تلك الشمس فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها في معسكره ثم اختار أيشا منها ما أحب وأخذه لنفسه وأطلق لهم باقي الغنيمة ليقتسموها بينهم.

ويشير الكرديزي الي الأسلوب القتالي الذي كان يتبعه الخزر قائلا : . وهم يذهبون كل عام الي ولاية بجناك للغزو ويجلبون من هناك المال والسبايا ويأخذ انشاد (نائب الخاقان) خراجه ويوزعه علي الجيش ولهم أثناء غزو البرداس (البرطاس) الأعلام والطرادات والجواشن المحكمة والمعارك الضارية

وحينما يركب ملك الخزر يركب معه عشرة آلاف فارس وآلاتهم ، وبعضهم يأخذ الرواتب وبعضهم يأخذ مما يوضع علي الأغنياء من أموال وصدقات ، وحينما يذهبون إلي الغزو يتركون جيشا كثيفا في ديارهم حتى يرعوا الأبناء والذخيرة ولهم طلائع تقدم الجيش كما تتقدم الملك الشموع والنفاطات التي صنعت من الشمع حتى يسير علي نورها مع الجيش وحينما يغنمون غنيمة فأنهم يجتمعون جميعا في المعسكر ثم يأخذ قائدهم لنفسه كل ما يريد من تلك الغنائم ثم يقسم الباقي بين الجيش ، ويأمر قائدهم ان يحمل كل جندي دبوسا له رأس حادة مقداره ثلاثة أزرع ، وحينما ينزلون يغرسون تلك الدبابيس حولهم ويعلقون علي كل دبوس درعا وبذلك يصنعون ما يشبه السور المعسكر ، ولو أراد عدو ان يباغتهم ليلا ويقيم معهم معركة فانه لا يستطيع لأن المعسكر بتلك الدبابيس المدرعة يصير كأنه الحصن .

واذا تمعنا فيما أورده ابن رسته والكرديزي نجد أن الحرب عند الخزر كانت من التقاليد الراسخة نظراً للظروف الجغرافية المكانية التي كانت فيها مملكتهم ، كما يتضح ان ملك الخزر كان هو القائد الأعلي للجيوش الخزرية فإذا أعلن أوامره لحملة عسكرية علي أحد الشعوب القاطنة حول الخزر كالبجناكية أو ضد المسلمين ، وجب علي الجميع الانصياع لأوامره كما أنهم علي ما يبدو لم يعرفوا مبدأ الشورى في تصريف الأمور العسكرية وبعبارة أخري لم يكن الملك يأخذ برأي كبار قادته العسكريين .

ولا شك أن جيش الخزر قد واكب مبتكرات زمانه في المعدات وفنون الحرب ، اذ يتضح مما أورده ابن رسته والكرديزي من أنهم في حروبهم كانوا يخرجون بأسلحة تامة وأثناء حروبهم مع المسلمين كانوا يستخدمون بعض العجلات الحربية وكان ملكهم يستخدم احدي هذه العجل والتي كانوا يطلقون عليها اسم الجدادة وقد فرشت له بأنواع الفرش وقد علت بقبة من الديباج وعلي رأس القبة رمانة من ذهب .

أما عن أعطيات الجند فيبدوا أنها كانت تعتمد اعتمادا كليا علي الغنيمة وكان الملك أو قائد الكتيبة يتقاضي أكبر قدر بينما يتقاضي من هم دونه باقي تلك الغنيمة ، كما انه كان للخزر أساليب تكتيكية إستراتيجية في الحروب انفردت علي ما يبدو به وهو أسلوب الحصار الدفاعي الذي تخلقه حول كتائبها والذي يشبه الحصن ويقيها من قدوم هجمات مفاجئة .

وقد استعان الخزر في جيوشهم بالجند المرتزقة التي كانت تحمل السلاح وتؤدي الخدمة العسكرية في صفوف الخزر وليس في الملوك من عنده جند مرتزقة في تلك الجهات غير ملك الخزر وقد أوضح ذلك جليا في اشتراك أهل خوارزم في جيش الخزر الذين كانوا يحصلون عند التحاقهم علي حق الحياد اذا دخل الخزر في حرب ضد بلد إسلامي كما ان جنود الخزر انفسهم انخرطوا في صفوف جيوش الإمبراطورية البيزنطية مع العناصر الأوربية والأرمينية والهنغارية التي شاركت في حروب الإمبراطور وعلي إيه حال فان الجيش الخزري كان يعتمد في حرويه علي الجنود النظاميين من الخزر فضلا عن الجند المرتزقة .

أما عن أعداد جيوش الخزر فقد كان للملك جيش يبلغ عدده اثنا عشر إلف رجل وإذا مات منهم رجل أقيم غيره كما كان للخزر أعداد ضخمة من الجيوش والأقوام المحاربة التي تسكن مدينة طولاس ***Tulles*** الخزرية وقد ذكر كل من الكرديزي وابن رست هان عدة الجيش عشرة ألاف والحقيقة ان هذا الرقم لا يتفق مع ما أورده المؤرخون المسلمون في حروب المسلمين مع الخزر التي زاد بعضها عن الثلاثمائة ألف وعلي الرغم من أن العدد الأخير مبالغ فيه الا أنه بكل تأكيد كان يزيد عن عشر آلاف نظرا لأن الحروب قديما كانت تعتمد علي الكثرة العددية وقد سبق الإشارة في الفصل الثاني الخاص بعلاقة الخزر بالبيزنطيين كيف قدم حاكم الخزر أربعين ألف للإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م

) ويمكن أن نطلق علي هذه الأرقام التي ذكرتها المصادر الإسلامية أنها قوة مسلحة مرابطة مرافقة للملك فقط .

وتجد الإشارة إلي ما كان يلاقيه المتخاذل في الحرب من عقاب علي يد الملك حيث انه إذا بعث سرية لم تولد الدبر بوجه ولا سبب فان انهزمت قتل كل من ينصرف اليه منها فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نسائهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم ، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة .

ومهما يكن من أمر فقد كان للخزر جيش قوي استطاع أن يوقف الزحف الإسلامي علي شرق أوربا – كما سبق أن أشرنا – ووقف أمام بيزنطة في فترات عديدة وكان الجندي الخزري نددا قويا في ملاقاته مع عدوه . هذا ولم تذكر المصادر المتاحة بين أيدينا أي شيء عند الأسطول الخزري والدور الذي قام به . ويبدو أن القتال العسكري البحري عند الخزر لم يأخذ نفس الأهمية التي أخذها القتال البري .

اللغة :

تعتبر اللغة أساس الحضارة البشرية ، واللغة ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس وانتقال المعلومات والخبرات بين الأفراد أما بشأن لغة الجزر فيقرر جغرافيو العرب أن لسان الخزر غير والفارسية ولا يشاركه لسان فريق من الأمم أي انه كان للخزر لغة منفردة لها قواعدها ودلالاتها ونطقها وصيغهاالخاصة بها ، وهو ما يتفق علي ما يبدو مع ما ذكره المقدسي من أن لسان الخزر شديد الانغلاق .

ويذهب الأصطخري ايضا الي أن لسان بلغار مثل لسان الخزر وبرطاس اي أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة منفردة عن بقية الشعوب .

ومن جهة أخري فقد تحدث اليهودي إبراهيم بن يعقوب (القرن العاشر الميلادي) وذكر أن الخزر كانوا يتكلمون بلغة الصقالية (البلغار) .

غير أن الكاشنري يناقض الأصطخري فيما ذهب اليه من أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة متميزة علي التركية ويجعل لهجات البلغار والسوار والبجناك متدرجة في مجموع واحد .

علي أنه يدوا أن الجغرافيين المسلمين قد أصابوا فيما ذهبوا اليه من أن الأقوام التركية التي تبدأ بالبجناك في جنوب روسيا ثم تنشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة فيما عدا البلغار في حوضي الفولجا والخزر ، فان لغتهما لم تكن تفهم عند سائر الأقوام التركية ولهجة الجوفاش الحالية هي بنفس هذا الوضع . ويسمي البلغار والخزر نهر الفولجا (أتيل) وهي كلمة جوفاشية بمعني نهر . ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية إلي أن لغة الجوفاش هي بقايا اللسان القديم للبغار وربما للخزر وبذلك تكوين لغة البلغار والخزر منسوبة إلي اللغة التركية القديمة والتي منها ألان الجواش .

ويبدوا أن الشعوب الكائنة في منطقة القوقاز كانت تندرج تحت عائلة لغوية واحدة تعود بأصولها الي اللغة التركية وهذه العائلة تشعب الي العديد من الفروع ، هذه الفروع تختلف وتقترب من بعضها البعض طبقا لاختلاف المسافات بينهما وطبقا للألوان الاحتكاكات فيما بينهما وربما يكون الاختلاف اختلاف لهجات فقط .

أما عن نوعية الكتابة التي مارسها الخزر فيذكر أبن البديم عند حديثة عن الترك ونوع كتابتهم أن الخزر تكتب بالعبرائية والحقيقة أن ذلك صحيح الي حد بعيد اذ أن مهاجري اليهود إلي بلاد الخزر قد جلبوا معهم فنونا وحرفا بيزنطية أرفع مما كنا نجده عند الخزر ، منها حروف الهجاء العربية المربعة وانتشرت هذه الكتابة العبرية بلغت جيران الخزر عن الشعوب الصقلية ومن ثم فان تحول الخزر لليهودية اقترن بتطورات ثقافية جاءت في ركابه .

وفي الرسالة المتبادلة بالعربية بين الأندلس وبلاد الخزر ذكر الملك يوسف ملك الخز ران الخزر تكتب بالعبرية .

ولا يهمنا هنا الإحاطة بمفردات اللغة ومعرفة قواعدها ودلالاتها وصيغها ولهجاتها أو أشكالها الصوتية فهذا من شأن علماء اللغة ، الا ان الشيء الذي لم تفصح عنه المصادر المتاحة بين أيدينا هو كيف كان مدي الكفاءة اللغوية (وهي القدرة علي استخدام اللغة) والأداء اللغوي (أي تطبيق تلك الكفاءة في الكلام والاستماع) بين طبقات المجتمع الخزري المختلفة والجنسيات المستقرة فيه الروسية والإسلامية والبلغارية ومعظم جنسيات العالم تقريبا . هل كان من الميسر التعامل بلغات كل تلك الجنسيات أم اقتصر التعامل في أرض الخزر بلغة الخزر .

المجتمع :

قدر لمملكة الخزر أن تكون مسرحا لأجناس شتي من شعوب متباينة ، ولا شك أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الخزر احتوت علي نوعيات مختلفة من الناس أسهمت في بناء المجتمع الخزري ، هذه النوعيات جاءت إلي أرض الخزر مدفوعة بدوافع عديدة كالهجرة والتجارة ، وربما المقامرة ، وبذلك صارت الخزر بحق مجتمعا فريدا في نوعه .

وكان المجتمع الخزري يضم مختلف الطوائف الدينية تقريبا من المسلمين والنصارى ويهود وعبده أوثان ممكن يسجد ممن يسجد لبعضهم البعض عند التعظيم ويلاحظ في دراسة المجتمع أن الملك كان يقع علي رأس المجتمع الخزري وفي ذلك يذكر ابن فضلان ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه ، يأخذها طوعا أو كرها وله من الجواري السراري لفراشة ستون ، ما منهم إلا فائقة الجمال ، وكل واحدة من الخزائر والسراري في قصر مفرد ، لها قبة مغطاة بالصاج وحول كل قبة مضرب ، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها ، فإذا أراد ان

يخدما بعضهن بعث إلي الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشة ويقف الخادم علي باب قبة الملك ، فإذا وطئها اخذ بيدها وانصرف ، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة ولا شك أن ما ذكره ابن فضلان يعتبر صوره من صور الحياة التي كان يعيشها ملك الخزر ويتضح من خلالها كيف تمسك بمظاهر الرفاهية والترف وبذلك نكتشف أن قصور أمراء وعظماء الخزر كانت مأوي لكثير من الجواري علي اختلاف أجناسهن وطباعهن وعاداتهن وتقاليدهن ولغاتهم . ومن جهة أخري فان هذا الرقم الذي ذكره ابن فضلان فيما يتعلق بالجواري والسراري يعني أن خاقان الخزر لم يبلغ نفوذه خمس وعشرين مملكة فحسب ، بل فاق ذلك بكثير .

ومما يؤكد عادة ملك الخزر في أخذ بنات الملوك طوعا أو كرها أنه علم بأن ابنه ملك البلغار ذات جمال فوجه يخطبها ، فاحتج عليه ورده ، فبعث من أخذها غصبا وهو يهودي ، في حين أنها كانت مسلمة ، فماتت عنده ، فأرسل يطلب بنتا له أخري فساعه اتصل ذلك بملك الصقالية (البلغار) بادر فزوجها لملك اسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها الأمر الذي دفع ملك البلغار الي طلب العون من الخلافة الإسلامية ضد الخزر .

وكان لملك الخزر قصر من اجر في مدينة أتل وليس لأحد بناء من اجر غيره ، ولا يسمح الملك لأحدأن يبني بالأجر ، أما البقية من طبقات الشعب فقد كانت تسكن في أكواخ طينية أو خيام مصنوعة من اللباد

ومن العناصر المختلفة التي كانت بمملكة الخزر المسلمون فقد كانت لهم مساجد وأئمة ومؤذنين وكتاتيب . ومن الأجناس التي حفلت بها أرض الخزر البغار والروس ، وفي مدينة أتل الخزرية يحرقون موتاهم ودواب ميتهم والاته والحلي ، واذا مات الرجل أحرقت معه أمرآته وهي في الحياة ، وان ماتت المرأة لم يحرق الرجل ، وان مات منهم أعزب .زوج بعد وفاته والنساء يرغبن في تحريق أنفسهم لدخولهن عند حرق أنفسهن الجنة .

ومن المؤسف ان الرحالة القدير ابن فضلان قد حيل بينه وبين زيارة عاصمة الخزر خوفا علي حياته ، ولم نجد بدا من الاعتماد علي المعلومات التي أوردها عن البلاد التي زارها والتي كان بعضها خاضعا للخزر وبعضها كان لهم طوائف منتشرة في بلاد الخزر .

ويصور ابن فضلان مظاهر الحياة الاجتماعية للروس وهي عبارة عن صورة صادقة لمشهد الاحتفال بموت الأمير الذي انضمت إليه زوجته وجواريه في رحلته الأخيرة والتي ذكر المسعودي أنها كانت تجري بالمجتمع الخزري . ولقد فصل ابن فضلان الموت عند الروس تفصيلا بارعا حيث وقف علي ذلك بنفسه وشاهده بعينه فقص علينا ما رآه في رسالته حيث يقول وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : من منكم يموت معه فيقول بعضهم أنا فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبدا ولو أراد ذلك ما ترك ، وأكثر من يفعل هذا الجواري . فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت أحداهن انا فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى أنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما وأخذوا في شانه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية ، حضرت إلي النهر الذي فيه سفينته فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنكك وغيره وجعل أيضا حولها مثل الانابير الكبار من الخشب ثم مدت حتى جعلت علي ذلك الخشب وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم وهو بعد في قبره لم يخرجوه ثم جاءوا بسرير فجعلوه علي السفينة وغشوه بالمغربات والديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ، ففرشت علي السرير الفرش التي ذكرنا ، وهي وليت خياطته وإصلاحه وهي تقتل الجواري، ورأيتها جوان بيره شخمة مكفهرة .

ويواصل ابن فضلان حديثه قائلا : فلما وافو قبره نحو التراب عن الخشب ونحو الخشب واستخرجوه في الازار الذي مات فيه ، فرأيته قد أسود لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذا وفاكهة وطيورا فأخرجوا جميع ذلك فاذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غير لونه فالبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزار ذهب ، وجعلوا علي رأسه قلسوة ديباج سمورية ، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي علي السفينة وأجلسوه علي المعربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه ، وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ، ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه الي جانبة ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتي عرقتا ثم قطعوها بالسيف وألقوا لحمها في السفينة ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها ، ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوها . وطرحوها فيها والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة وجاثية تدخل قبة قبة من قبابهم ، فيجامعها صاحب القبل ويقول لها قولي لمولاك أنها فعلت هذا من محبتك فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة وجاءوا بالجارية إلي شيء قم عمره مثل ملبن الباب فوضعت رجليها علي أكف الرجال وأشرفت علي ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها فانزلوها ثم اصعدوها ثانية ففعلت فعلها في المرة الأولي ثم انزلوها واصعدوها ثالثة ، ففعلت في المرتين . ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به ، وأخذوا الدجاجة فالقوها في السفينة .

ويستمر ابن فضلان قائلاً : فسألت الترجمان عن فعلها فقال قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أري أبي وأمي وقالت في الثانية هو ذا أري جميع قرابتي ألموتي قعودا وقالت في المرة الثالثة هو ذا أري مولاي قاعدا في الجنة والجنة حسنة خضراء ، ومعه الرجال والغلمان ، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه فمروا بها نحو السفينة فنزعت سورين كانا عليها ، ودفعتهما إلي المرآة التي تسمي ملك الموت وهي التي تقتلها ، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلي الجاريتين التين كانت تخدمانها وهما ابنتا المرآة المعروفة بملك الموت ، ثم

أصعدوها إلي السفينة ولم يدخلوها إلي القبة . وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ، ودفعوا إليها قدحا نبيذا فغتت عليه وشربته فقال لي الترجمان أنها تودع صواحبتها بذلك ثم دفع اليها قدح أخر ، فأخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها علي شربة والدخول إلي القبة التي فيها مولاها . فرأييتها وقد تبلدت ،أرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة ، فأخذت العجوز رأسها أدخلتها القبة ، ودخلت معها ، وأخذ الرجال يضربون بالخشب علي التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري ، ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلي جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمي ملك الموت في نقها حبلا مخالفا ، ودفعته إلي اثنين ليجذباه ، وأقبلت معها خنجر عريض اتصل فأقبلت تدخله بين إضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحل حتى ماتت ثم وافي أقرب الناس إلي ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشي القهقرى نحو قفاه إلي السفينة ، ووجهة إلي الناس والخشبة المشتغلة في يده الواحدة ، ويده الأخرى علي باب أسته وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها جنب مولاها ثم وافي الناس بالخشب والحطب ، ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب ، فتأخذ النار ففي الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم سعرها .

وكان إلي جانب ابن فضلان رجل من الروس فسمعه ابن فضلان يكلم الترجمان الذي كان يصاحبه ، فسأله عما قال : فقال انه يقول : أتم يا معشر العرب حمقي فقلت : لم ذلك ؟ قال : إنكم تعمدون إلي أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب وتأكله التراب والهوام والدود ونحن نحرقه بالنار في لحظة ، فيدخل الجنة من وقته وساعته .

ولا شك أن تلك الطقوس كانت – ولا زالت من طقوس الهند ، إلا أن الهند ليس من شأنها ان تحرج المرأة مع زوجها إلا ان تري ذلك المرأة ، وكانت هذا الموضوع ثقيلاً بارعا دقيقا ولابد أنه غضب من رؤية تلك الجارية يتناولها الفجرة الكفرة من أصحاب ذلك الميت في أوضاع يأباها الإسلام والدين والذوق .

ويبدو أن قبور الروس كانت تنتشر بمملكة الخزر والتي يفرش في موضعها صارت والحطب والجارية والمولي رمادا رمدا ثم بنوا علي موضع السفينة ، وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور ، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك ، وكتبوا عليها اسم الرجل ، واسم ملك الروس ، وانصرفوا .

ويمدنا ابن فضلان بصورة أخري للروس الذين كانوا يشكلون عنصرا أساسيا في المجتمع الخزري حيث يقول عنهم الروس يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم باتل ، وهو نهر كبير ، ويبنون علي شطة بيوتا كبارا من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر . ولكل واحد سرير يجلس عليه ومعهم الجواري الروقة للتجار فينكح الواحد جاريته ورفيقة ينظر إليه وربما اجتمعت الجماعة منهم علي هذه الحال بعضهم بحذاء بعض وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأفطسه . وذلك ان الجارية توافي كل بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلي مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ، ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء فاذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة الي الذي بجانبه ففعل مثلما فعل صاحبه ولا تزال ترفعها من واحد إلي واحد حتى تديرها علي جميع من في البيت وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها .

والحقيقة أن ابن فضلان استنكر أشد الاستنكار وطء الروس جواريتهم علي الملأ وقضاء حاجاتهم علنا كما تقزز من قذارتهم حين لقيهم علي نهر الفولجا (اتل) في أرض البلغار .

ومن العناصر الجنسية التي كانت تنشر بأرض الخزر الأتراك الغزية الذي لم يطق الرحالة ابن فضلان والذي تعود علي حمامات بغداد الفاخرة قذارة الأتراك ولاحظ أنهم لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل خاص في الشتاء ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم ، وكذلك لا تستتر المرأة من بدنها عن أحد من الناس وأورد ابن فضلان كثيرا من الروايات هاله فيها ما شاهده من مصاحبة النساء للرجال ونزع رؤيتهم في عري مخجل .

والحقيقة ان تلك العناصر المختلفة التي كانت تشكل المجتمع الخزري لم تنحدر إلي مرتبة التبعية المطلقة ، لأنهم احتفظوا بحريتهم في ممارسة شعائرهم وتقاليدهم وقوانينهم ولا حاجة لنا هنا أن نثير الفكرة التي تقفز الي الذهب عند دراسة مجتمع ما والتي مفادها أن تلك العناصر الغريبة التي تستقر بدولة ما غالبا ما تنزل ان لم يكن للعبودية المحضة فهي إلي حالة شبيهة بها علي الأقل ومهما يكن من أمر ، فانه من المؤكد ان المجتمع الخزري كان يسبغ علي تلك العناصر والطوائف المهاجرة بشأن التجارة ، العاملة الحسنة ، ذلك أنهم لو اتبعوا أسلوبا مخالفا عن ذلك لكسدت تجارتهم التي هي موردهم الرئيسي .

وإذ انتقلنا إلي الحديث عن السمات التي تميز بها المجتمع الخزري نجد بعض المصادر تذكر أنهم – أي الخزر – يقيمون إلي الشمال من المعمور إلي الأرض وأرضهم باردة رطبة ، ومن ثم فان بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعرهم مسترسل يضرب إلي الحمرة في الغالب وأجسامهم كبيرة وطبائعهم باردة ومنظرهم عامة كالهمج بينما تشير المصادر الإسلامية إلي ان الخرز لا يشبهون الأتراك وهم سمر يضربون بشدة السمرة إلي السواد كأنهم صنف من الهند

وصنف بيض ظاهرة الحسن والجمال وفي حين ان كاتبا أرمينيا أشار إليهم قائلا ، أنهم حشود الخزر المخيفة بوجوههم الوقحة العريضة الجرداء وشعورهم المسترسلة كالنساء والحقيقة أن هذه الاختلافات وعدم اتفاق المؤرخين علي شكل ومظهر معين للخزر يؤكد ان المجتمع الخزري كان مجتمعا عالميا عج بكثير من الجنسيات ويبدوا أن شعوبا تأثرت بالخزر . ومنهم علي سبيل المثال الروس الذين كانوا يعيشون بين المجتمع الخزري فعلي الرغم من أساليبهم العنيفة ، فأنهم أبدوا رغبة صادقة في التعلم من الشعوب التي قد لهم أن يحتكوا بها . وشاهد علي ذلك اتخاذهم لقب الخاقان من الخزر ، وأيضا اتخاذهم شخصين يتوليان أمرهم وهو أمر كان غريبا علي الشعب الجرماني في الشمال .

ولم تكن علاقة الخزر بالبيزنطيين والمسلمين وغيرهم معارك دموية متصلة ، وإنما تخللتها علاقات ودية عديدة أعطت الفرصة للسلام والاختلاط الاجتماعي وكانت هناك مشاريع عديدة للزواج مثل زواج الإمبراطور البيزنطي جثيان الثاني (٦٨٥-٦٩٥,٧٠٥-٧١١م) بثيودورا أخت خاقان الخزر التي سبق الإشارة إليها ومشروع زواج الامبراطور قطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) الذي تزوج خزرية وهي ابنه الخاقان وحملت العروس صداقا له وهو رداء فاخر بلغ من اعجاب البلاط البيزنطي ان اتخذوه خلة يرتديها الرجال في المحافل الرسمية ، وكانوا يطلقون عليها تزيتزاكيون ***Tzitzakion*** وهو الاسم الخزري التركي المحبب للأميرة ابنة الخاقان والتي كان اسمها أيضا شيشاك أو الزهرة ثم أطلق عليها ابرين بعد تعميدها . ولقد علق المؤرخ البيزنطي قطنطين بورفيروجبنتوس علي هذا المصطلح بالقول ان هذه الكلمة ***Tzitzakion*** كلمة خزرية الأصل وهي اسم حلة يرتديها الرجال في الدولة البيزنطية واشتقت من أسم الأميرة الخزرية التي قدمت هذا الرداء .

كما كانت هناك مشاريع زواج قامت بين الخزر والمسلمين مثل زواج الأميرة الخزرية ابنه خاقان الخزر بوالي أرمينية المسلم ، وقد قدمت الأميرة

الخزرية الي بلاد الإسلام ومعها عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر وأربعة آلاف رمكة بفحولها وألف بغل وبغلة وألف إنسان وعشرة آلاف جمل خزري من الجمال الصغار ، وألف جمل تركي كل جمل تركي منها بسنامين وعشرون ألف شاة وعشر عجلات علي مثل القباب ، لها أبواب مضروبة بصفائح الذهب والفضة ومفروشة بالسمور ومحللة بالديباج وعشرون عجلة فيها أمتعة وانية من الذهب والفضة وغير ذلك من كنوز صداقتها .

النشاط الاقتصادي :

تمتعت مملكة الخزر بفترة طويلة من الرخاء الاقتصادي وكانت مجالا واسعا التقي فيه الشرق بالغرب حيث وجهت مملكة الخزر اهتمامها الي التجارة باعتبارها أبرز مواردها الاقتصادية .

وقد اعتمد المصدر الرئيسي لدخل الخزر علي التجارة ، ذلك أنهم تحكموا في الطرق التجارية التي تربط الشرق الأقصى بالإمبراطورية البيزنطية من جهة ، والأقاليم الإسلامية بالأراضي السلافية من جهة أخري وكانت تفرض رسوما علي البضائع المارة بأراضيها ، مما جعلها تستفيد من الأرباح الناجمة عن تلك التجارة .

ولقد اعتاد التجار المعروفين بالراهندية علي عبور إمبراطورية الخزر عند انتقالهم من والي الصين والهند والراهدانية تجار يهود يتكلمون بالفارسية والروسية والعربية والإفرنجية ويسافرون من المشرق إلي المغرب والعودة مرة أخري ويمرون علي أقاليم الخزر فيحصل منهم ملك الخزر الضرائب والمكوس وكانوا يحملون معهم الخصيان الخدم والأولاد والحرير والفراء والسيوف والمسك وعود الند والكافور والقرفة ومحاصيل أخري من أقصي الشرق .

ولقد كان للخرز علاقات تجارية كبيرة مع بيزنطة ففي القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) روي بعض السفراء البيزنطيين في بلاط الخليفة الأموي بقرطبة أن ثمة سفنا قادمة من بلاد الخز رالي القسطنطينية تجلب إليها

من وقت لأخر سمكا وجلودا وفراء وتشحن عند عودتها أقمشة من بيزنطة والحقيقة أن تجار الخزر شاركوا تجار البلغار والترك في جلب كميات ضخمة من المنتجات الطبيعية إلي البسفور والقسطنطينية ومن هذه المنتجات الذرة والملح والسمك والفراء والشمع والعسل وجلود الحيوانات والكهرمان والعبيد ولقد ورد ذكر التجار الخرز مع العديد من تجار البلاد الأخرى التي تنتمي إلي جنسيات مختلفة في وصف الرحالة بنيامين التطيلي لمدينة القسطنطينية حيث ذكر أن بالمدينة حركة دائبة من التجار القادمين من بابل وفارس وروسيا واسبانيا وغيرها من البلاد كما كان الخزر وجيرانهم يجتلبون فراء السهوب ورقيقها وسمكها المجفف الي خرسون ببلاد القرم أو تحملا السفن الروسية من الدنيير الي القسطنطينية والشيء الجدير بالملاحظة أن بيزنطة كانت تحتكر منتجات الحرير في أوربا وكان الخزر والمسلمون يتزاحمون علي استيراد القماش الموشي (المطرز) من بيزنطة ، كما كان يفعل الغرب .

ولم تكن العلاقات التجارية بين الخزر وبيزنطة فحسب فقد كان للتجار الخزر نشاط بارز خارج مملكتهم في جهات أخري من العالم في ذلك الوقت حيث وجدوا في بغداد التي كانت ملتقي لمعظم التجار علي اختلاف جنسياتهم ، من بابل وفارس والهند وغيرهم ، كما ان التجار المسلمين جلبوا الي اسواقهم في خزريا سلع فارس والصين وتبادوا معهم الأطعمة والخيول ومنتجات الغابة والعسل والفراء والشمع وغيرها من هذه المنتجات وكان سيل من التجارة يتدفق في مجري الفولجا وغيره من الأنهار ، ويصل الي وسط روسيا واسكندیناوه عن طريق مملكة الخزر ، واية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الاسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الاسلامية اكتشفت بجهات نائية مثل المانيا وأقاليم البلطيق ولا شك أن هذا ان دل علي شيء فإنما يدل علي اتساع وضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الاسيوية وشمال أوربا.

والحقيقة أن الشيء الملاحظ في منطقة القوقاز هو تلك الحضارة البدائية لأقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة وسكانها ذوي السلالات واللغات المختلفة وكل ذلك كان عقبة في اقامة علاقات تجارية دائمة ، غير أن ملوك الخرز سكان المناطق التي يخترقها مجري نهو الفولجا السفلي نجحوا أخيراً في تهيئة وضع منتظم ، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالإقامة في بلادهم بكامل حريتهم ومن ذلك الحين استطاع التجار المسلمون أن يوثقوا علاقات منظمة في مناطق شمال بحر قزوين ، وشهدت أتيل عاصمة الخرز الواقعة علي مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم ، ولم يقف العرب بالوصول الي اتيل ، بل استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتي قلب روسيا طلبا للجلود والفراء .

والحقيقة ان اتيل عاصمة الخزر كانت بحق علي درجة كبيرة من التحضر وكانت أعظم مركز تجاري في ذلك الوقت كما كانت القرنين السابع والثامن الميلاديين يمثلان العصر الذهبي لمملكة الخزر في التجارة حيث بسطوا كل سيادتهم علي كل السهوب الجنوبية وكانوا سادة معظم القبائل السلافية الجنوبية حيث أجبروهم علي دفع الجزية . وكانت تلك القبائل السلافية تشارك في التجارة كما أن الوثائق الأثرية تشير الي أن علاقات تجارية قامت بين مملكة الخزر والسويد ومن المحتمل أن تكون بدأت هذه العلاقات في نهاية القرن الثامن الميلادي وكانت مملكة الخزر تقوم بتحصيل العشر من قيمة الشحنات المارة بأتيل والتي تمر عبر أراضي الخزر عموما.

اما عن المصادر الاسلامية التي أوردت اشارات عبارة عن الحياة الاقتصادية بمملكة الخرز ، فتذكر أن واردات الخرز وصادراتها كانت من السلع الأجنبية التي كانت أهم مصدر لدخل البلاد ، أما بلاد الخرز نفسها فلم تكن تنتج شيئا خاصا بها الا غراء السمك أما الزئبق والعسل والشمع والخرز والأوبار . فمجلوب اليها من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينيا وأذربيجان ، والتي كانت

تقوم بدورها بتصديرة أي أن معظم ناشطهم التجاري كان يعتمد علي اعادة تصدير المواد التي كانت ترد اليهم من الخارج .

وقد عملت مملكة الخرز علي توفير الأمن والاستقرار للتجار الوافدين عليها من مختلف الجنسيات وشتي بقاع الرض وقد سبق أن ذكرنا أن التجار الوافدين كانوا يتحدثون لغات أوطانهم ، ولكننا لا نعلم ان كانت هناك لغة مشتركة متفق عليها بين التجار لتسهيل نشاطهم التجاري ومهما يكن من أمر فانه اذ كان هناك لغة مشتركة فأنها من المؤكد سوف تكون لغة التجارة فقط . وغير معروف أيضا كيف كانت تعقد معظم الصفقات التجارية ، هل هي بالنقد أم المقايضة أم البيع المؤجل الدفع ، وان كانت احدهما فما طريقة عقد الصفقات الغالية .

أما عن العملة الخزرية فلم تمدنا المصادر المتاحة لهذا البحث بما يفيد عن أبرز ما تميزت به مجموعة نقودهم سواء أكانت ذهبية أم فضية ، وعلي أي نسق سكنت ، وهل تأثرت بدولة معينة من ناحية طرازها أو عناصرها أو صنعها .

وفي مجال الزراعة حرصت مملكة الخرز علي تنمية مواردها الزراعية جنهبا الي جنب مع التجارة لانعاش أحوالها الاقتصادية وان لم يصل نصيبها من الاهتمام كالتجارة ، وكانت مزارعهم منتشرة وشاسعة ومعظمها كان الأرز ، كما كانت مدينتهم سمندر مليئة بالبساتين الكثيرة وتشتمل علي أربعين ألف كرم . وكان الخرز بعد أن يحصدوا زرعهم يضموه بالعجل الي النهل والي مواضع تقرب منه وينقلون ما اجتمع الي النهر في السفن وما قرب من البلد نقل بالعجل الي البلد والحقيقة أن سمندر تعتبر من أهل مدنهم حيث كانت تطل علي ساحل البحر مما جعلها تعج بالتجارة والأسواق .

ويفهم من رد الملك يوسف علي خطاب حداي السابق ذكره أن مملكة الخرز كانت واسعة الثروة ، ليس من التجارة فحسب بل من ممارستها للنشاط

الزراعي أيضا وساعد علي ذلك تمتع أرضها بالخصوبة ووفرة المياه المتمثلة في الأنهار والترع والجداول ، وقد أشار يوسف الي وجود الحقول ومزارع الفواكه بكثرة في أرض الخرز .

أما عن الصناعة فلا تفيدنا المصادر المتاحة بشيء في هذا الصدد وان كان ابن الوردي يشير الي أنه بارض الخرز جبل يسمي باثره به معادن الفضة السهل المأخذ والرصاص أيضا ويؤيد ذلك كتاب(دربند نامه) الذي يشير الي وجود الذهب والفضة بكثرة في بلاد الخرز وربما قامت بعض الصناعات علي تلك المعادن ، وان كان من المؤكد أن دولة محاربة كمملكة الخرز لا يخلوا نشاطها الاقتصادي من صناعة بعض الأسلحة المعاصرة في ذلك الوقت .

ومهما يكن من أمر فان شهرة اشتغال الخرز بالتجارة غطي علي باقي الانشطة الاقتصادية ، ولقد ظل التجار الطليان يشيرون الي القرم باسم خازاريا حتي وقت متأخر من القرن الخامس عشر ، أي بعد سقوط مملكة الخرز ، ولا شك أن هذا لم يكن الا مجرد رمز جغرافي يعيد ذكري دولة عفي عليها الزمن.

الديانة :

عاشت مملكة الخزر قوية منتعشة لفترة طويلة من الزمن ، وكانت تضم خليطا يعود بأصوله الي العديد من الشعوب خصوصاً وسط أسيا وشرقها ، وكانت ديانة الخزر الأولي فيما قبل الديانة الشامنية ***shamanistic*** وهي الديانة الوثنية للقبائل التركية عموما كما كانت لهم تصورات وثنية والاههم الأكبر كان تنكري خان وكان أكبر حدث في تاريخ مملكة الخزر ، هو اعتناقهم لليهودية ، حدث ذلك في القرن الثامن الميلادي ، حيث اعتنقها ملك الخزر والطبقة الحاكمة ، وعدد كبير من شعبه ويبدو أنهم كانوا قد وصلوا إلي درجة من الحضارة دفعتهم إلي التخلي عن عقيدتهم الوثنية ، واتخاذ عقيدة ، جديدة ، وهي اليهودية التي صارت الديانة الرسمية لدولة الخزر ، والواقع أن اعتناق

الخزر لليهودية ، قد حير معاصري الخزر ، كما حير العلماء والدارسين المحدثين .

والحق أن تحول الخز رالي اليهودية أمر يثير طائفة من التخمينات خصوصا وأن هذا الأمر صدر من شعب ليس من أرومه يهودية وجدير بالملاحظة أنهم اتخذوا من اليهودية ديانة رسمية لهم . متحدين ضغوط المسيحيين في بيزنطة وضغوط المسلمين من الشرق ، واتخذوا دينا لا سند له من أيه سلطة سياسية بل انه كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا وقد كان هذا التحول مثيرا لدهشة جميع المؤرخين المشتغلين بالخزر ، ولا يمكن أن يعد هذا الأمر أمرا عارضا وإنما يجب أن نعده دليلا علي سياسة انتهجتها مملكة الخزر.

ان اعتناق الخرز لدين يهوذا حدث فريد في التاريخ ، والعوامل التي دفعتهم الي ذلك تحتاج الي الامعان لقد كان العالم في ذلك الوقت يستقطبة قوتين عظميين هما الامبراطورية البيزنطية وتمثل المسيحية والخلافة الاسلامية وتمثل الاسلام ، وكانت بين تلك القوتين مملكة الخرز التي أثبتت في كثير من الأحيان أنها كانت ند لكل منهما .

ومن العوامل التي أسهمت في تهويد الخرز وهو الحرص علي الاستقلال ازاء القوتين العظميين ، المتمثلين في المسيحية والاسلام ، لذا فقد اختارت العقيدة الثالثة (اليهودية) غير التابعة لهاتين القوتين ، اذ أنها لو اختارت عقيدة الاسلام سوف تجعل منهم التابع الروحي للخليفة في بغداد ، ولو اختارت عقيدة المسيحية سوف تخضعهم علي الفور للإمبراطور الروماني (البيزنطي) وربما تكون مملكة الخرز قد اعتنقت اليهودية ، وفضلوا في أكبر الظن أن يغتصبوا الخلافة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية بدرجة واحدة من أن يغتصبوا واحدة منهما غضبا يعرضهم للخطر وبذلك يكون الخرز قد استقر بهم العزم علي

ان يكونوا غير تابعين لأي من القوتين العظميين ، وعلي أن يحافظوا علي موقعهم كقوة ثالثة تتزعم الأمم الوثنية المنتشرة بالفيافي .

علي أنه من خلال صلات الخرز الوثيقة بيزنطة والخلافة تعلموا أن عقيدتهم الشامانية عقيدة بدائية ومتخلفة عن مطالب عصرها ، وقد عفي عليها الزمن اذ قورنت بالديانات السماوية ، ثم هي عاجزة عن أصفاء الهيبة الروحية والشريعة علي زعماء الخرز كما هو حال رجال الحكم المسلمين والمسيحيين ، حيث ينعم بها الخليفة والإمبراطور ، ولذلك فقد اثر الخزر اتخاذ ديانة غير النصرانية والإسلام واعتنقوا اليهودية .

ويري البعض أن سبب اعتناق الخزر لليهودية هو حدوث انقلاب في الحكم ضد الخاقان سليل الأسرة الوثنية التي لا يمكن الوثوق بولائه للشريعة الموسوية ، إلا من حيث هو رمز فحسب ، كان ذلك سببا في اتخاذ الخزر العقيدة اليهودية كديانة رسمية للدولة ، والحقيقة أن هذا الرأي لم يدعم بأية أسانيد ولكن الشيء الواضح ان الخزر اتخذوا طريقا مخالفا لأهل الغرب الذين أرادوا أن يحملوهم علي اعتناق النصرانية ومقاومة أهل الشرق الذين كانوا يريدونهم اعتناق الإسلام .

وحول موضوع اعتناق الخزر لليهودية نلاحظ أن المصادر العربية والعبرية قد اختلفت في التفصيلات الخاصة بسبب اعتناقهم علي الرغم من اتفاقها في تعليله ، فبالنسبة للمصادر الإسلامية فيقول المسعودي ، وفي هذا الصدد وكان تهو ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) /١٧٠-١٩٣هـ) وقد أنضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا (وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ، وهو أرمنوس (٩١٩-٩٤٤م) نقل من كان في ملكه من اليهود إلي دين النصرانية وكارههم فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلي

أرضه علي ما وصفنا قوله بالإشارة إلي كتاب له أخر تضمن وصفا لهذه الظروف إلا أن هذا الكتاب فقد ولا نعرف عنه شيئا .

ويتضح من نص المسعودي أن اعتناق الخزر لليهودية ، كان علي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان معاصرا للإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكايوس المغتصب والذي اشترك مع الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينتوس (٩١٣-٩٥٩م) والعبارتان الأخيرتان من نص المسعودي تشيران إلي حوادث حدثت بعد اعتناق الخزر اليهودية بمائتي عام – كما سيأتي – وتكشف لنا عن مبلغ الاضطهاد الذي عاناه اليهود .

ويشير الدمشقي الي أن صاحب القسطنطينية أيام هارون الرشيد اجلي من كان في مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر ، فوجدوا قوما عقلاء ساذجين فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما هم عليه فانقادوا اليه .

ويتضح مما سبق أن هؤلاء اليهود وجدوا في بلاد الخزر أرضا خصبة لانتشار اليهودية ويلاحظ أن الفترة التي تولاها الخليفة العباسي هارون الرشيد كانت بين سنتي(٧٨٦م ، ٨٠٩م) وفي تلك الفترة كان يشغل كرسي الامبراطورية البيزنطية قسطنطين السادي (٧٨٠-٧٩٧م) والإمبراطورة أيرين (٧٩٠-٨٠٣م) والإمبراطور (تقفور الأول ٨٠٢-٨١١م)

ومما يجد ذكره أن كثير من الأباطرة البيزنطيين قد اتخذوا ضد اليهود اجراءات صارمة ، ولقي اليهود كثيرا من الاضطهاد الديني في عهود الأباطرة (جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) وهرقل (٦١٠-٦٤١م) وليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) ورومانوس ليكيانوس وغيرهم فعلي عهد الإمبراطور هرقل مثلا نجده يصدر مرسوما يقضي بتعميد اليهود بعد أن علم بما ألحقه اليهود بالمسيحيين وبكنائسهم من أضرار ، كما عمل علي استئصال شاقتهم وإبادتهم من كل مكان حتى من خارج حدود الإمبراطورية حيث أقنع سيسبو ***Sisebut*** الحاكم القوطي بأسبانيا بطرد اليهود وإقصائهم عن بلاده ، وبالفعل قام سيسبو

بطرد اليهود عن بلاده ، خاصته هؤلاء الذين لم يستطع إرغامهم علي التعميد ، كما نجح الإمبراطور هرقل في إقناع ملك فرنسا بالانضمام لهذا المشروع . ولما كانت بيزنطة أكبر قوة روحية مسيحية في شرق أوربا وما ولاها ، فقد كانت ترقب التغيرات الروحية في دولة الخزر بعين مفتوحة ، فنجد الإمبراطور جستيان الثاني سنة ٦٩٢م يعقد مجمع ترولان الديني لمعالجة قضية اليهود ، والذي تمخض عنه بيان يدعوا إلي استئصال شافة الانحراف اليهودي كما قام الإمبراطور ليو الايسوري بحملات اضطهاد واسعة جري بمقتضاها الزام اليهودي علي التحول إلي المسيحية وأدي ذلك الي هروب الكثير منهم إلي خارج بيزنطية وربما يكون هؤلاء اليهود هم الذين هودوا ملك الخزر حاشيته ، بالإضافة إلي الاعتقاد السائد بأن يهود القوقاز هم الذين دفعوا مملكة الخزر لاعتناق هذا الدين .

كما أن الصلات بين دولة الخزر والإمبراطورية البيزنطية قد تأثرت باضطهاد اليهود في عهد الإمبراطور رومانس ليكاينوس ، وقد التجأ كثير من اليهود الذين أخرجوا من الإمبراطورية البيزنطية إلي بلاد الخزر في ذلك العهد .

ومهما يكن من أمر ، فلقد كانت بلاد الخزر الملجأ للخروج اليهودي تحت وطأه الحكم البيزنطي والاضطهاد الديني في عهود العديد من أباطرة بيزنطة ، حيث كان اليهود يضمرون العداء للإمبراطورية البيزنطية وكانت تمتلئ قلوبهم بالحقد والكراهية لها ، وكثيرا ما أظهروا العداء لها وفي كثير من الأوقات أمسي اليهود عنصرا قويا يهدد أمن وسلامة الإمبراطورية ، وثمة مصدر إسلامي ثالث وهو المسالك والممالك للبكري ، الذي يشير إلي ظروف اعتناق الخزر لليهودية بشكل تفضيلي ، ويبدوا أن تلك الظروف قد استقاها من الكتاب الذي أشار إليه المسعودي وفقد حيث ذكر قائلا : وملكهم علي دين اليهودية ومسكنه في قصر علي البعد من النهر وإنما كان سبب تهود ملك الخزر وكان مجوسيا أنه تنصر فرأي فساد ما هو عليه فاخذ فيما غمة من ذلك مع بعض مراذبته . فقال له ايها

الملك ان اصحاب الكتب ثلاث طوائف فارسل اليهم واستخبر أمرهم واتبع صاحب الحق منهم ، فأرسل الي النصاري في اسقف وكان عنده رجل من اليهود ذو جدال فناظره قال له : ما تقول في موسي بن عمران والتوراة المنزلة عليه : قال له : موسي نبي والتوراة حق فقال اليهودي للملك : قد اقر بحقيقة ما أنا عليه فسله عما يعتقد ، فساله الملك فقال له : أقول أن المسيح عيسي بن مريم هو الكلمة وأنه المبين عن الله عز وجل بالسرائر ، فقال اليهودي لملك الخزر أنه يدعي دعوي لا اعلمها وهو مقر بما عندي فلم يكن الأسقف كبير حجة ، وأرسل الي المسلمين فارسلوا اليه رجلا عالما عاقلا عارفا بالجدل فدس اليهودي عليه من سمه في طرقه فمات واستمال اليهودي الملك ال ملته فتهود .

وعلي هذا الأساس اعتنق ملك الخزر اليهودية بفضل اجتهاد اليهودي الذي كان بارعا ومتمكنا في الحجة والمناقشة ، وبعيدا عما اذا كان هذا القصة في جانب الخطأ أو الصواب فان المؤرخ المحدث بيوري يطلق قائلاً : ان هناك حقيقة أساسية هي أن بلاط الخزر كان متأثرا تأثرا قويا باليهودية قبل أن يتهود رسميا ، ذلك أن رجل الدين المسيحي والمسلم قد أرسل الملك في طلبهما ، أما اليهودي فكان بالفعل في صحبته .

ولكن الشيء الملاحظ هنا تعقيبا علي ما أورده البكري أنه علي عهد الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) حوالي سنة ٨٦٠م قد قدمت سفارة خزرية من قبل خاقان الخزر وطلبت من الامبراطور البيزنطي أن يرسل لهم من يشرح العقائد المسيحية ومن المعروف أن الديانتين الاسلامية واليهودية كانتا معروفتين عند الخزر ووقع الاختيار علي قسطنطين وهو أحد تلاميذ البطريرك فوتيس ليكون مبعوثا دينيا ويشرح لخاقان الخزر مزايا المسيحية ليقدر مكانتها من الديانتين الأخريين (الإسلامية واليهودية) ووصل قسطنطين إلي خرسون ومكث بها عدة أشهر لدراسة اللغة الخزرية ثم توجه الي اتيل عبر طريق نهري الدون والفولجا ، وواصل رحلته إلي سمندر والتقي بخاقان الخزر ، وعلي الرغم

مما تركه قسطنطين من اثر طيب في نفس ملك الخزر فان سفارته لم تكن ناجحة تماما ، فلم يجر تعميد سوي مائتين من الأشخاص فقط وعاد إلي القسطنطية بعد ذلك بوقت دون تحقيق النجاح المرجو مما يدل علي أن الديانة اليهودية كان لها شان كبير في بلاد الخزر آنذاك وكان لأتباعها دور خطير ومؤثر في بلاط خاقان الخزر .

أما المصادر العربية التي تحدثت عن اعتناق الخزر لليهودية منها الكتاب الذي وضعه يهوذا هاليفي (يهوذا اللاوي) (١٠٧٥-١١٤١م) أعظم وأشهر شاعر يهودي في أسبانيا ويعتبر هاليفي أول مفكر لليهود في العصور الوسطي ، ووضع كتابه عن الخزر وأسماه كوازري ***Kuzari*** أي الخزر بالعربية هخوزي ***Hebrew sarer Hakuzari***) . كتب هاليفي كتابه قبل أن يموت بسنة واحدة حيث انه كان صهيونيا لقي ربه في حجه لبيت المقدس ، وهذا الكتاب في الحقيقة هو عبارة عن رسالة فلسفية تعرض الرأي الذي يقول بأن الأمة اليهودية هي الوسيط الوحيد بين الله وسائر البشر ، وسوف تعتنق الأمم جميعا الدين اليهودي في أخر الزمان ، ويبدو أن اعتناق الخزر لليهودية إشارة علي هذا الحدث الذي ليس بعده حادث وهذا الكتاب عبارة عن حوار في شكل مجادلات ومناقشات دارت بين الملك والملك والحبر .

اليهودي . وتحدث عن المحاولات الفلسفية التي دارت بين ممثلي الديانات الثلاث السماوية . ويجد بنا هنا أن نعرض بعض ما جاء فيه : يذكر هاليفي أن ملك الخزر راي روية في منامة حيث جاء اليه ملك وقال له : نيتك حسنة ولكن عملك ليس كذلك ، وبناء علي ذلك قرر ملك الخزر استدعاء ممثلي الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام لمناقشتهم وبيان أفضل هذه الأديان .

ثم يستعرض في كتابه كيف حاول الفيلسوف اليهودي اقناع ملك الخزر بدينه بانتهاج طريقة الفلسفة اليونانية العتيقة فعمل علي اقناعه بروح تلك الفلسفة حيث ذكر أن الرب أعلي الأعالي وسبب أسباب كل تطور في الخلق كما

أن كل مخلوق أصل من مخلوق سابق له والعالم لم يخلق الا وهو قديم وحاول أن يقنعه بمبدأ السببية من أصل كل انسان ولد من انسان سابق له ، وأن العالم مر بتطور تدريجي ، وأن كل حلقة في السلسلة مربوطة بالحلقة التي قبلها والتي بعدها مربوطة بكلتيهما وهكذا فان الأسباب والنتائج مرتبطة وملتصقة بالأخرى وماهية كل واحدة نتيجة سابقة ومسببة لتلك التي بعدها ... أي أن للفيلسوف حاول أن يقنع الخزر بفكرة الديانة اليهودية علي أنها القاعدة والأساس للأديان الأخرى دون الاهتمام بالمشاكل الدينية والخلافات المختلفة بين تلك الديانات ، ومن ثم فهو يستطيع أن يعرض علي دينه علي أسرته ومواطني دولته.

بعد ذلك قرر الملك الخزري أن يدعوا ممثلين عن المسيحية والاسلام ، لكي يقدموا أفكارا عن دينتهما تحدد أي الديانتين أصلح وقد ألقي ممثل المسيحية محاضرة أمام ملك الخزر عن أساس ديانته ، ومن هذه الأسس ذكر ان المسيحين يعتقدون أن الههم قبل الأول وأن العالم خلق وقد استمر خلقة سته أيام ، وقد ولد البشر من ادم ومن أبناء نوح بعد الطوفان وكان الخالق مهتما بخلقه وظاهرا لهم .

واختار من أجناس البشر شعب اليهود ، ووضع بينهم روحه القدس ، ويؤكد المسيحيون أنهم مؤمنون بوجه عام بكل شيء مدون بتوراة موسي ، وكتب أنبياء اسرائيل (العهد القديم) وكل ما أتي عنهم حقيقة والاختلاف في نظرة المسيحيين في العلاقة مع اليهود تبدأ مع يسوع المسيح ، وكان تجسيد الرب قبل معرفتهم ليسوع ، وقد ولد يسوع لاحدي عذاري اليهود ففي الظاهر اتخذ صورة بشرية ، ولكن أصبح برغبته هو الرب ففي الظاهر ظهر كنبي ، وفي الخفاء كان هو المسيح الذي تطلع اليه اليهود وابن الله وأصبح هو شيء واحد الأب والابن والروح القدس ، وبلغة واضحة فان هذا التعريف يعد ثالوثا ولكن في ماهيته توحيد الهي وقد سكن مع شعب اسرائيل حتي صانوه ثم شنقوه ، وقد

أسقط شنقه غضبا الهيا أبديا علي شعب اسرائيل ، والمسيحيون يسيرون في الطريق الصحيح لأنهم يتطلعون الي يسوع المسيح ، وقد عرف بطرس قوانين المسيحية ووصاياها ، وقد جاء للتمسك بشرائع موسي وليس لاخفائها علي أن الملك الخزري أجاب الراهب بعد الانتهاء من محاضرته بأن الخزري لا يستطيع أن يتقبل العقيدة المسيحية لأنها تعتمد علي أقوال غير منطقية مثل انجاب الله ابن من عذراء لحما ودما ، ومع أنه ابن الله فهو أيضا الأب وأيضا الروح القدس في الوقت الذي هم فيه ثالوثا هم شيئا واحدا ، وبذلك لا يمكن للخزري أن يتقبل تلك الديانة كإيمان .

بعد ذلك ألقي العالم المسلم محاضرته عن أسس دينه أمام ملك الخزر ، وأنكر هو أيضا مثل الخزر امكانية تجسيد الله في يسوع وأوضح أن المسلمين يعتقدون أن الله كتب قرانهم ، وأن القران يشهد علي حقيقته ، فلا يستطيع بني البشر أن يأتوا بمثله ، بل ولا بآية من آياته ونبيهم محمد صل الله عليه وسلم هو اخر الانبياء قد جاء بأمر الهي لكي يلغي كل الشرائع التي سبقته ، ويدعو الاسلام لكل الشعوب لكي يسلموا ويلتقي المؤمن بعد موته ثواب ، ويتحد جسده مع نفسه في جنة عدن ، ويتمتع هناك بكل الملذات الممكنة والممتنع عن الإسلام يموت في نار جهنم وجلدته لا يتركوه الي الابد ....الخ

علي ان ملك الخزر رفض أيضا هذه العقيدة لأن بزعمه اعجاز القران في لغته والإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يستطيع أن يتبين بماذا يفضل القران عن الكتب العربية الأخري كما أن ملك الخرز لم يصدق أن الخالق تجلي لمحمد صلي الله عليه وسلم ثم جاء ممثل الدين اليهودي أمام ملك الخزر ولم يفتح محاضرته عن الدين اليهودي كما فعلي المسيحي والمسلم ولكنه بدأ المحاضرة بقوله " نحن نؤمن بإله ابراهيم واسحاق ويعقوب الذي أخرج أبناء إسرائيل " وقد ذكر ممثل الدين اليهودي أن مسئولي المسيحية والإسلام افتتحوا أقوالهم في المحاضرة علي أسس الديانات التوحيدية وليس في هذه القضية فرق

جوهري بين دين وآخر ولذلك فلم يعد هو الي تلك الأقوال وادعي أن ما أورده ممثلي المسيحية والإسلام جاءت لتثبت حقيقة دين اسرائيل ومن ثم دعي ملك الخزر الي الايمان بدين إسرائيل الذي يتأسس علي وقائع تاريخية صادقة معروفة في العالم منذ أن حدثت حتي اليوم فلا يوجد فرد حاول أن ينكرها

ويهمنا هنا أن يهوذا هاليفي يذكر في موضعين مختلفين من كتابه تاريخ اعتناق الخزر اليهودية وقع منذ أربعمائة عام في عام ٤٥٠٠ (طبقا للتقويم اليهودي) اي سنة ٧٤٠م وهو أكثر التواريخ احتمالا ولا شك أن هاليفي اتخذ من اعتناق ملك الخزر اليهودية سبيلا لنصرة دينه فغلف كتابه بهذه القصة التاريخية الواقعية حتي يكون تأثير كتابه بعيدا وزعم أن اليهودية خير أديان الأرض وأن ملك الخرز نهود عن قناعة تامة بالديانة اليهودية التي هي الوحيدة الوسيط بين الله وسائر البشر ، ولقد نجح حيث ركز علي ان المسيحية وتعاليمها تعتمد وترتكز في كثير منها علي اليهودية ولا تعارضها الا في فكرة الاله ، كما ركز أيضا علي فكرة التثليث التي تلاقي خلافا كبيرا لكنه علي الرغم من ان المؤلف كان متمكنا ملما بالعقيدة المسيحية والفلسفة الاغريقية ، وعلي معرفة بالإسلام – كما وضح – الا أنه في الحديث الخاص بالاسلام الذي دار بين ملك الخرز والفقية المسلم يبدو ضعيفا وذلك أنه اظهر الاسلام خاليا من المعجزات اللهم الا القران الكريم المدون باللغة العربية وبعد ان فكر الملك مليا وجد ان القران بالعربية ولا يستطيع احد غير عربي ان يدرك معجزته .

وصفوة القول أن كتاب يهوذا هاليفي عبارة عن نقد موجه الي الديانتين الاسلامية والمسيحية ، وهو شبيه الي حد كبير بالقصة التي أوردها البكري حيث نجح الحاخام اليهودي في اقناع ملك الخرز باعتناق اليهودية ، في حين فشل الق المسيحي والفقيه المسلم ، والاختلاف بين الروايتين يتضح في أن الفقيه المسلم لم يدس احد له السم .

وتعتبر الرسالة الخزرية ***The khazar correspondence*** التي تبدلت باللغة العبرية بين حداي بن شفروط وملك الخرز يوسف من أهم المصادر التي تتحدث عن اعتناق الخرز لليهودية ، وقد جري تبادل هذه الرسالة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٩١١-٩٦١م / ٣٠٠-٣٥٠هـ) الذي استطاع أن يقضي علي الحركات الانفصالية في دولته ويوحد البلاد تحت سيطرته ويجعل من عاصمة ملكة قرطبة مفخرة للأندلس العربية وأحد المعابد الرئيسية لانتقال الحضارة الاسلامية الي أوربا.

وقد ولد حداي في قرطبة بسنة٩١٠م لأسرة يهودية بارزة واستطاع أن يجذب انتباه الخليفة عبد الرحمن الناصر بمهارته وممارسته للطب ، فاتخذه الخليفة طبيبا ثم وزيرا لخارجيته ليدلي بدلوه في مأرب المعاملات الدبلوماسية المعقدة للخلافة مع بيزنطة ، حيث كان الامبراطور البيزنطي رومانوس الأول) ٩١٩-٩٤٤م) مهتما بمضان حياد قرطبة في أثناء الحملات البيزنطية علي الخلافة العباسية في الشرق . لذا عزز من أواصر الصداقة بينه وبين قرطبة ، وأرسل مخطوطة طبية وهي مخطوطة ديبو سقوريدين ***Dioscorides*** مع الراهب نيقولاس ***Nicolaus*** الذي ترجمها من اليونانية الي اللاتينية وقام حداي بترجمتها الي اللغة العربية . وكان حداي ينتهز كل فرصة للتدخل لتحسين وضع اليهود في بيزنطة وأسبانيا وفي كل مكان في أنحاء العالم . كما اشترك حداي في كثير من النواحي السياسية الخارجية مع الامبراطور الألماني أتو الأول (٩٣٦-٩٧٣م) وقشتاله وأرشغون . وغير ذلك من الممالك النصرانية وقد سمع حداي أول ما سمع من بعض تجار من خرسان ببلاد فارس بوجود مملكة يهودية مستقلة علي رأسها ملك يهودي وأن هذه المملكة موجودة بالفعل وأسمها خوزار ***Khozar*** (مملكة الخزر) وقد أكد له رواية التجار سفراء بعثة دبلوماسية بيزنطية أرسلت الي الخليفة عبد الرحمن ، ولذلك عزم حداي

علي ارسال مبعوثين من رجال البلاد الي الخزر يحملون رسالة الي الملك يوسف ملك الخزر في ذلك الوقت .

وقد استهل حداي خطابه بتحيات رنانة لملك الخزر ، ثم تحدث عن اليهود ، وما عانوه من المصائب والنكبات التي نزلت بهم ، وكيف فرح حينما علم بوجود تلك المملكة اليهودية ثم تحدث حداي بافاضة عن الأندلس واسمها وموقعها والتجارة وكل شاردة وواردة عن الأندلس والمسافة بينها وبين القسطنطينية وكيف ازدهرت إسبانيا في عهد العرب كما تحدث عن جغرافيتها ، كما وضح كيف يعيش اليهود في كنفها عيشة رغده ثم انتقل حداي بعد ذلك للحديث عن الكيفية التي عرف بها المملكة اليهودية من التجار الخرسانيين وكيف شك في صدق روايتهم واتقعد أنهم يسعون الي كسب عفة ووده ، ولكن البعثة الدبلوماسية البيزنطية أكدت له روايتهم ، وذكرت أن تلك المملكة تبعد عن القسطنطينية في رحلة تستغرق خمسة عشر يوما ، وأن لبيزنطة علاقات تجارية طيبة معهم وعلي رأسها الان ملك خزري اسمه يوسف .

وذكر حداي كيف عزم علي الاستفادة من خدمات السفارة البيزنطية لنقل رسالته الي ملك الخزر ، وكيف أوفد رسولا أسمه اسحاق بن ناسان بتعليمات تقتضية أن يمضي في رحلته حتي يبلغ بلاط الخزر ، وحمله بهدايا قيمة للإمبراطور البيزنطي لكل ييسر له رحلته ، وعندما وصل الرسول الي القسطنطينية عومل معاملة طيبة ولكن البيزنطيين أخروه ومنعوه من المضي في رحلته بحجة أن الطريق مملوء بالأخطار ، ومن ثم عاد اسحاق رسول قرطبة انجاز المهمة ، وربما يرجع سبب عودته الي أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن راغبة في قيام تحالف بين البلاد الخزر اليهودية وخلاف قرطبة التي كان كبيرا وزرائها يهوديا .

ويمضي حسداي ذاكرا كيف أصيب بالإحباط حينما علم بذلك الأمر ، وقرر ارسال خطابيه عن طريق بيت المقدس لأن هناك أشخاصا وعدوات

بتوصيله ، الا أن رسلا من قبل ملك *Gebalim* (بوليسلاف الأول *Bosleslav I of* وصلوا الي قرطبة في زيارة سياسية وكان من بين أفراد البعثة يهوديان أسمهما سول ويوسف اللذان عرضا عليه توصيل الخطاب ، وذلك بأرساله الي اليهود القاطنين في هنغاريا (المجر) اللذين يقومون بدورهم بتوصيله الي روسيا ومن هناك إلي البلغار ، حتي أخر المطاف في أتيل عاصمة الخزر ، ولقي هذا الاقتراح الاستحسان والقبول لدي حداي الذي عبر عن شكره العظيم لهم .

ومضي حداي في رسالته قائلاً : اني لأشعر بحافز يدفعني الي معرفة الحقيقة : هل حقا يوجد مكان علي ظهر هذه الأرض ، يستطيع فيه اليهود المنهكون أن يحكموا أنفسهم دون أن يخضعوا لأحد ، لو قيض لي أن أعلم بوجود هذا المكان حقا ، لما أصابني التردد في التضحية بكل ما أملك من ألقاب الشرف التي أحملها والاستقالة من منصبي الجليل تاركا مكانتي العالية وأهلي وماضيا في رحلتي أعبر الجبال وأقطع السهول ، ضاربا في اليابسة ، خائضا الماء حتي أبلغ البلاد التي يحكمها مولاي الملك (اليهودي) . وبعد ذلك يسال حداي طائفة من الأسئلة المباشرة عن دولته وطريقة أرضة والقبائل التي تقطن حول دولته وعن الملوك الذين اعتلوا المملكة وعن جغرافية أرض الخزر وشعائرها ونظامها القضائي، والأمم التي تدفع الجزية واللغة الدارجة في أرض الخزر وموقعها من يوم السبت ، وعن جيوشه ، وعن أسله ومن أي نسل انحدروا ، كما سأل حداي ؟ هل لدي الملك يوسف علم بالتاريخ المحتمل للهجرة الأخيرة (أي ظهور المسيح عليه السلام) التي ننتظرها ونحن نجوب الأرض من بلد الي بلد ، ويحق علينا في ذلتنا وخضوعنا اللذين نعاني منهما في تشردنا ، وأنهي جداي خطابه برجاء أن يرد عليه الملك يوسف ولاحظ من خطاب حداي أنه كان طويلا ذكر فيع معلومات غزيرة وتفصيلات طويلة عن الأندلس بهدف اغراء الملك يوسف بالإضافة في ذكر أحوال مملكته في رد عليه .

أما عن رد ملك الخزر يوسف عن رسالة حداي ، فنجده يبدأ مستهلا بتحيات دافئة ، ثم تحدث الملك مرددا مطالب جسداي الرئيسية التي جاءت في رسالته ، منوها في فخر واعتزاز بأن مملكة الخزر تكذب الذين يقولون أن صولجان يهوذا قد سقط من أيدي اليهود الي الأبد والذين يقولون أيضا أنمه لا مكان علي وجه الأرض للملكة خاصة باليهود . ثم ردد الملك الخزري مطالب أخري لحداي تضمنت اجابة عن سؤال حداي الخاص بشعبه وأصله ، ومن أي قبيلة من القبائل الاثني عشر اليهودية ينتسب للملك وشعبه ، وأجاب يوسف بأنه وشعبه يرجع أصولهم الي يافث الابن الثالث لنوح ولا يرجعه الي سام وبذلك نستطيع القول أن الملك الخزري يوسف بالرغم من أيمانه الشديد باليهودية واعتزازه بقيامة علي صولجان يهوذا فانه لم يستطع أن يزعم أنه من أصل سامي وبذلك يكون الخزر لا علاقة لهم بالجنس السامي ، كما أن حداي في رسالته سأل عن أي قبيلة من القبائل الاثني عشر ينتسب (للملك) ظنا منه أن يهود الخزر خرجوا من فلسطين شأنهم في ذلك شأن يهود الاندلس .

بعد ذلك يتحدث يوسف في رده عن اعتناق الخزر لليهودية بشكل أسطوري ، والذي حدث قبل ذلك بقرنين من الزمان، وبدأ يمدح الملك بولان ووصفه بالعدل والحكمة ، وأنه من أعظم الغزاة حيث طرد السحرة والمشركين وقد تراءي له في أحلامه ملك نصحه وحضه علي أن يعبد الاله الواحد الحق الذي سوف يجزيه بالإكثار من ذريته ومباركتهم وتخليص مملكته من أعدائها وجعلها تدوم . حتي نهاية العالم ويعقب كويستلر قائلاً : أن هذا بالطبع من وحي القصة التي وردت في سفر التكوين وشمل أن الخزر زعموا أنهم شعب مختار أيضا قد عاهدوا الرب علي الرغم من أنهم لم يكونوا من نسل ابراهيم .

والحقيقة أن هذا يدل علي أن الملك يوسف ملك الخزر قد تأثر بالوعود الربانية المزعومة التي حتلت بها التوراه علي أن الملك يوسف بعد أن تحدث عن تحول الخزر الي اليهودية يقف عند هذا الحد ، ويسلك اتجاه اخر غير

متوقع ، اذ ذكر أن الملك بولان كانت نيته قد صحت عليان يطيع الله ، غير أنه يضع مشكلة في هذا السبيل ويقول : وأنت يارب تعلم ما يكنه قلبي من أسرار ، وقد تغلغلت فيما تنطوي عليه جوانحي ، فعلمت أنني عليك توكلت ، غير قومي اللذين أحكمهم لهم عقول مشركة ، وليست أدري أيؤمنون بي أم لا يؤمنون ، واني اذ أجد في عيونك المطلقة الرضا والرحمة ، واني أسالك أن تتجلي أيضا للأمير الاكبر ، لتجعله يمدني بعونه وتأييده . واستجاب المولي لطلب الملك بولان فتجلي للأمير الأكبر في الحلم ، وحينما استيقظ فتي الصباح من نومه حتي شخص الي الملك بولان وأخبره بكل ما رأي في منامه علي أن الشيء الملاحظ أنه لم يرد في أخبار المؤرخين المسلمين فيما يختص باعتناق الخزر لليهودية عن وجود أمير أكبر يجب الحصول علي رضاه لكن ربما يكون ذلك صدي لما ذكرته المصادر الاسلامية من أنه كان للخزر – كما ذكرنا من قبل – شخصان (عاهلان) يقومان بأعباء الحكم في المملكة .

ويستمر يوسف في حديثة ويروي كيف ظهر الملك مرة أخري في منام بولان وكيف أمره باقامة مكان للعبادة حيل فه الرب وذلك أن السماء والسماوات التي فوقها لا تتسع لي علي أن بولان رد عليه في خجل وحياء بأنه لا يمتلك الذهب ولا الفضة التي تعينها علي القيام بهذا العمل وان كان الواجب والرغبة يوجبان القيام بذلك ، وهنا أكد له الملك بأن كل ما يجب عليه عمله هو أن يقود جيوشه الي داريل وأردبيل في أرمينيا ، وفعل ذلك بولان ما اشار عليه الملك ، وعاد منتصرا ومحملا بالغنائم وأقام هيكلا مقدسا ومجهزا بصندوق مبارك (تابوت العهد) وشمعدان ومذبح وأدوات مقدسة حفظت الي اليوم ولا تزال بعد في حوزتي (أي في حوزة الملك يوسف)

والحقيقة أن هذه الحملة التي تحدث عنها الملك يوسف تنطبق علي الحملة التي قام بها الخزر علي أردبيل والتي قتل فيها الجراح الحكمي وسبقت دخول الخزر اليهودية وكانت سنة ٧٢١م (١١٣هـ) تقريبا وكما سبق فان

بعض المصادر الاسلامية قد أشارت بأنه كان للخزر مناجم ذهب في القوقاز ، ومجمل القصة التي رواها يوسف أنها تجمع بين الحقيقة والخيال . وبعد أن ينتهي الملك يوسف من رده علي حداي ، يتحدث عن الملك عبدية ***Abadiah*** ، وهو أحد حفدة بولان الذي أصبح ملكا علي المملكة الخزر ، ووصفه يوسف بالشجاعة حيث أصلح وجدد في مملكة الخزر ، وقوي من شأن اليهودية في المملكة ، ودعي بعض المدارس اليهودية الي المملكة ، وجمع جمعا من حكماء اسرائيل وجعلهم يفسرون الكتب المقدسة والمنشأ والتلمود ، وأقام عبدية المدارس والمجامع اليهودية واستخدم الخزر في مكاتباتهم الرسائل العبرية وعلي ما يبدو أنه بعد بولان بعده أجيال حدثت نهضة دينية أو اصلاح وربما يكون هذا التغيير قد واكبه انقلاب في المملكة أدي الي ذلك ، وأن اعتناق الخزر لليهودية تم علي عدة مراحل كما وضح فان بولان طرد السحرة والمشركين قبل أن يتجلي له الملك في منامه وأقام العهد مع الاله الحق قبل أن يقرر ، أله اليهود هو أم النصارى أم المسلمين ، وأغلب الظنان اعتناق الملك بولان واتباعه لليهودية كأن مرحلة وسط أو أنهم اعتنقوا صورة بدائية من اليهودية تعتمد علي التوراة دون سواها ، ومع استعباد باقي كتب ايهود الربانية والشعار المشتقة منها وهم في بلاد فارس وكانت تتمسك بالتوراة (العهد القديم) فقط دون غيرها من الكتب اليهودية كالتلمود .

ثم أجاب يوسف علي بعض الأسئلة الخاصة بمملكة الخزر من حجمها وجغرافيتها والأمم التي تدفع الجزية ، الا أنه يجنح في خطابه بعيدا عن الكياسة والفطنة حيث يظهر بمظهر المدافع عن الخلافة الاسلامية في بغداد حين ذكر أنه يمنع الروس ويقاتلهم ليمنعهم من نهب الأقاليم الاسلامية التابعة للخلافة . ومن المعروف أن الخلافة الأموية في قرطبة التي كانت حداي في خدمتها كان بينها وبين الخلافة العباسية في بغداد عداوة مستحكمة أفاضت في ذكرها المصادر المعاصرة

علي ان الملك يوسف خص تاريخ ظهور المسيح عليه السلام بالقول " أن عيوننا علي حكماء اورشليم وبابل وعلي الرغم أننا نعيش بعيدا عن صهيون فإننا قد سمعنا مع ذلك بان الحسابات مخطئة بوفرة الآثام ونحن لا نعلم شيئا وانما الباقي هو الذي يعلم كيف يتولي الحساب وليس لدينا ما نستند إليه إلا نبوءات دانيال ونسأل الله أن يجعل بخلاصنا ونقف عند هذه الفقرة ونقول إن جمهور اليهود يعتقد أن فلسطين هي أرض الميعاد وأنهم سوف يعودون إليها وانضم الي هؤلاء اليهود الخزر الذين لا يمتوا بصلة الي بني اسرائيل ، وهذه العودة سوف تتم علي يد ما أسموه المسيح المنتظر ، وأن هذا المسيح (المنقذ او المخلص) سيخرج من بيت داود ويجمع شمل اليهود ويعود بهم اللي أورشاليم لينقذهم من المحن والشدائد التي يعانونها ، ويخلصهم من التشريد والهوان جزاء عصيانهم أوامر الله وينتقم لهم من جميع الشعوب ويفرض عليها سلطان اليهود ، ولقد ورد في تلمودهم ، عندما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيرا وملابس من الصوف وقمحا في حجم كلاري الثيران الكبيرة وحينئذ ترجع السلطة لليهود .

وهناك أسطورة في توراتهم تشير الي أن هناك نبي يدعي أيليا صعد الي السماء مستقلا مركبة من نار يجرها حبل من نار أيضا ، واليهود يعيشون في انتظاره علي أمل هبوطه من السماء بشيرا بمقدم المسيح ، كما تحفل التوراة بنبوءات تشير الي هذا المسيح المنتظر . وفي نهاية الخطاب ذكر يوسف أن للإله ربما يجمعه هو وحداي وكل المشتتين والمأسورين وكل من أحب اسرائيل من اليهود ، وأجابه بانه علي استعداد لدخول حداي في خدمة ملك الخزر ، وأكد له يوسف في عبارات دافئة أنه يعتبره والده ويعتبر نفسه ابنا له وأن شعب الخزر سوف يكون تحت رهن مشورته

وكان هذا خطاب حداي والرد عليه من ملك الخزر يوسف ، والحقيقة أنه علي الرغم من وفرة المعلومات عن اعتناق الخزر لليهودية ، الا أن هذا الموضوع ما زال مثيراً لدهشة العديد من المؤرخين المعنيين بالخزر صحيح ان تحول الخزر الي اليهودية كان الدافع اليه سياسيا الا أنه ليس من المعقول أن ملك الخزر اعتنق هذا الدين بهذا الشكل الأسطوري الذي أوردته المصادر المتباينة ، ولا يمكن أن يكون قد انقاد اليه انقيادا أعمي دون أن يعرف شعائره وفروضه ، وان اللاجئين الذين فروا بدينهم من اضطهاد بيزنطة كانوا يتقاطرون علي بلاد الخزر حشودا اثر حشود ،وكانت بلاد الخزر هي المأوي الطبيعي للخروج اليهودي تحت وطأة اعتناقهم لهذه الديانة ، ولكن مما يدعوا الي الدهشة أن الخزر اتخذوا دينا لا سند له من أيه سلطة سياسية ، بل كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا .

ويبدوا أن اليهود اقنعوا ملك الخزر وشعبه بأن اليهود قد اختارهم الرب لكني يقودوا العالم الي الحياة الفضلي ، وأن الله اختارهم لهداية كبقية الشعوب في العالم لا شك أن القائمين علي هذه الديانة أقنعوا ملك الخزر وحاشيته بأنه اذ اعتنق اليهودية سوف تكون أمته اليهودية الجديدة هي المعلم بالنسبة لشعوب العالم الناعمة الغافلة ، وأنه سوف يصبح أكثر حضارة من بيزنطة المسيحية والخلافة الاسلامية .

ويبدو أيضا أن القائمين علي الديانة اليهودية انبروا وراحوا يفصون بؤس اليهود والمظالم التي لاقوها ويعيشون فيها ، ودعوا ملك الخزر الي العطف علي اليهود ونشادوه باعتناق اليهودية ، وربما يكون اليهود قد نسوا أرض الميعاد التي يطمعن العودة اليها في ذلك الوقت ، فعملوا علي اقناع ملك الخزر باعتناق اليهود هو وشعبه وقرروا التخلي عن أرض الميعاد (فلسطين) – مؤقتا – وقنعوا بمنطقة أخري تحقق أحلامهم بإقامة وطن قومي لهم ، فيبدوا أن اليهود الذين مضي عليهم الف عام مشردين في الأرض بلا مأوي نسوا ما يكون عليه حالهم اذا تولي امري ملك ليس منهم وأرض لا أصل لهم بها .

وهكذا اعتنق الخزر اليهودية علي الرغم من البعثات التبشيرية الضخمة التي كانت اصلها بيزنطة لنشر الديانة المسيحية والتي لم تصادف النجاح ، فان الخزر أصروا علي أن اليهودية عقيدة أحسن من النصرانية ، ولم تغن فتيلا جهود القديس كيرلس الذي تعلم الخزرية والعبرية تهيؤا لتلك الغاية ، فلم يستطع أن يصرفهم تماما عن رأيهم وعلي الرغم من أن مملكة الخزر كانت تحمي اليهود واليهودية في أراضيها الا أنه كان في اتيل اكثر من عشرة الاف مسلم ومسجد جامع له مئذنة شامخة وكان المسلمون يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع ، وبلغ ملك الخزر في سنة ٩٣٢م (٣١٠هـ) أن معبد اليهود قد دمر في بعض البلاد الاسلامية ، فما كان منه الا ان هدم مئذنة المسجد وقتل المؤذن ولم يمس المسجد نفسه بسوء مخافة أن تدمر جميع المعابد اليهودية في البلاد الاسلامية ، وكان ذلك أكبر دليل علي حماية الخزر لليهود واليهودية خارج نطاق دولتهم .

الفصل التاسع
الحضارة الإسلامية

الحياه الفكريه عند سلاجقه الروم.

شهدت اسيا الصغرى طوال القرن الثاني عشر الميلادي حروبا طويله خاضعها البيزنطيون والصليبيون والمسلمون فالصليبيون تصدوا بلاد الشرق للغزو والاستعمار كما ان البيزنطيين لم ينسوا ان الاتراك المسلمين قتضعوا معظم جسدهم في اسيا الصغرى ومن لم الوا على انفسهم ضرورة طرد المسلمين الاتراك وقاموا بمحاولات طوال القرن الثاني عشر دون جدوى كما لم تخلو العلاقات بين القوى الاسلاميه المختلفه في اسيا الصغرى من الخلافات والحروب وهكذا لم تتح لهذا العناصر حياه الاستقرار وهي الحياه الازمه لمباشره النشاط الفكرى بالقدر الذي اتيح لغيرهم في اسبانيا وصقليه وبلاد الشرق الادنى.

والواقع ان التبادل الفكرى والانتاج العقلى لا يتم الافي ظل استقرار كامل الا ان الاوقات السليم القليله طوال القرن الثانى عشر الميلادى في اسيا الصغرى كانت كثيرا ماتتيح الفرصه لإنتاج العقلى والفكرى.

وقد كان التعليم في اسيا الصغرى قبل الحكم السلجوقى تعليما دنينا بحثا ويخضع خضوعا تاما لسيطرة الكنسية ويجرى لي المدارس ديربه ومدارس استقفيه او اوكا ندارنيه شانه كثير من المناطق والاقاليم المنهجيه في العصور الوسطى وكانت الكنيسه تشرف على التعليم وقام رجال الدين بالتدريس في غالبيه انواع المدارس التي قامت في عصور الوسطى وبذلك تكون مدارس الاديره قد اسهمت في تقديم الحركه العلميه لان الرهبان اهتموا في كل دير بجانب واجبالهمالدينيه بتعليم الصغار من ابناء القرى المجاوره وخدمه البيئه الثقافيه.

والواقع ان جامعه القسطنيطيه :اضحت في عصر المقدونيين الاوائل مركز جذب اليه خبره الطول اندالك هذا الربانية التى اعيد تنظيمها في عهدا الامبراطور البيرنطى قسطنطين التاسع (١٠٥٥-

١٠٤٣م)فيسنه ١٠٤٣ واستنان للقيام بهذا العمل بالمؤخ بسللوس ابدع عمل قاضيا اكليروسيا في اسيا الصغرى لفتره ليتفق على دراسته وتعليمه كما استعان بصديقه بوحنا زيقلتبوس حيث شهدت الجامعة انه فكريه جديده وكان لبسللوس المؤرخ في الدرجة الاولى في احياء الآداب والعلم الإنسانية في انحاء الإمبراطورية البيزنطية بما ليبدا اسيا الصغرى وكان لجهود في اعاده تنظيم الجامعة اكبر الا لو في خلق حاله طبيه منا أنشطه الثقافية خلال القرون التي تبعث من عمل الإمبراطورية على عهد اسرتي كومين وأنجلوس.

غير ان اسيا الصغرى كانت مأهوله بسكان يتكلمون بلغات غربيه ويديرون بتقائد مختلفه عن الثقافه البيرنطيه التى تمت وتطورت في اسيا الصغرى مثل (الوطنين من اهل قبادوقبا والارمن والجروجيون وزادمن حده المشكلهانهؤلاء السكان لم يكتفون انفسهم مع الثقافه البيرنطيه فسأعدلك على لدهور الحياه الثقافيه التي كانت عاملا من عوامل التماسك الاجتماعي في اسيا الصغرى.

صحيح ان الهليسينه لاذت بمعلقها الحصين في اسيا الصغرى واستلمت في الدفاع عن وجدها واشتدت فيب مقاومه العرب في ما وارء جبال طوروس التي كانت .الي كونها حد طبيعا حد دينيا وحضارينا بين الشرق والغرب الي انها تحللات في القرن الحادي عشر وانتصرت في اقاليم اسيا الصغرى.

وعندما توغال السلاحقه المسلمونفي اسيا الصغرى .بعد معركه مانذكرت انتقلت هذا البلاد من الحضارهع اليونانيه والدينه والادباء المسيحيه . الي العقد والحضاره الاسلاميه وما تحملهمن نظم واداب .في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كان عامه سكان اسيا الصغرى يديمونه بمسحيه ويتكلمون اليونانيه وينعمون بالاستقرار . وبعد معركه

مانزكرت ١٠٧١ توغلت القبائل السلجو قية في اسيا الصغرى وكان افرادها يدرون بالاسلام ويتكلمون التركيه.

وخفت نجم نقيه التى كانت مدينه المجمع الدينيه المسيحيه وعلى ذلك فى القوانين التى اصبح تالعاصمه الناجه لسلطنه السلاجفه الروماكنت سلاطين السلاجفه يقومون عند فتح كلمدينه بالقيام بتعين ائمه وموذنين ومعلميين وقضاة وتشيد المساجد والمدارس الزوايا الاسلاميه تذلم بقيه وصبغك تلك المساج بالطابع الاسلامى ونشر الثقافيه الاسلام يهمما كان له اكبر الاثر فى اعادة تشكيل مجتمع اسيا الصغرى على اسس اسلاميه وفى اعقاب قيام السلطان سليمان بن قطلمش بفتح قبليقبه عام ١٠٨٤ ميلادى (٤٧٧) طلب عن ابنعمار فى طرابلس ان بعده بقضاء شرعى لتصريف الاموال الدينميه والمدينه بالاقاليم كما ان السلطان فتح اسلان التانى استعانه بالاقاليم الفقهيه الشافعى عنبن هبه الله بن محمد بن على بن ابى البركان ابن البخارى (ت ٥٦٥هـ)فى ادجارة القضاء بالمدينه قونيه معى اهتمام سلاطين سلاجفه الروم بالعلم والعلماء غدت عواصم او من كثيرة فى اسياالصغرى مركزلانتشار الثقافه الاسلميه فى اسيا الصغرى مث مدن قونيهاو اقصراوسوسيه وغيرها من المكدن حيث اتخذ قلعه اللسام الثانى اقصى التى شيدها سنه ١١٧١ ميلادى (٥٦٦ هـ) قاعدة لغزواته ولم ينسى انعاش الحلقه العلميهلهذة المدينه فنشا بها المساجد و المدارس والقصور كما جلب اليها العلماء من اذربيحان ليبقوا بهذة المدينه ويذكر الواندى ان سلاطين ال سلجوق اختصوا العلماء من احصاب ابى حنيفه العطف والرعايه بحيث استقر محبسهم بقلوب الناس جميعه شيئا و شى وتتحدث احدى الوثائق السلجوقيه عن وجود منصب فى القصضر السلطانى يسمى استاذ السلطان تتشير هذة الوثيقه الى انالسلطان السلجوقى كان يرغب فى

تةاجد العلكماء والادباء بالقصر وتتحدث عن شخص زى مكانه علميه كان دائم التواجد فى مجلس السلطان فى هذا الفرض واشترط لمن يتقدم لوظيفه استاذ السلفطانهان يطون حجه فى اعلوم و الادب حتى يتمك تعينه فى هذا المنصب الى كان من ارقى المناصب فى السلطنه السلجوقيه وكان يطلب منه الحضور فى مجالس السلطنان ويقوم بتعليمه ما يراه مناسب من الادب ةالعلوم وكيفيه كتابه المرسلات الخلارجيه والداخليه والرياضيات بالاضاف الى علم التاريخ وغيرها من الامور العلميه والمعرفه كان الستاذ السلطان يحصل علي راتبه المخصص له من الخزانه السلطانيه ولقاء عمله .وكان يكطلق عليه احيانا لقب استاذ السلطان المعظم

ونحن نعلم من المباني التي عفا عليه الزمن .والتي مازلت في قونيه .ان السلاجفة الادارك قد تحول من قبايله باربريه تبحث عن النهى والسلب الي وحده من اعظم الامم المتحضره في وقتهم .ولقد وصلت اسيا الصغرى في القرن الثانى عشر الي درجه رافيعه عاليه من الانجاز الحضاري لهذا المنطقه التي لما تعرف التعصب الديني .حيث قدما اليها العالما والشعراء والصوفيه من بقاء عربيه خاصه اقطار الشرق بعد الغزو المغولي لها حيثو ساهمو في تطوير كافه مناحي الحياه .وكان معظم الجاين والذين قدمو الي اسيا الصغرى هاربا من ضغط المغول والفرس هم عالما وفالسفه ورجال دين من بخاري وخاسان وفارس.

وقد اهتم السلاجقه بالعالم والعلماء حتى ان الروندى وصف السلطان غياث الدين ابي الفتح كيخروبين السلطان فتح ارسلان :"انه بفضل دوله هذا الملك العادل سيتم احياء العالوم في هذا الديار فاانه سعمل على ان تكون اثار الروم كما كانت من قبل ساده في جميع ارجاء العالم Λان اثارنا تدول علينا :فنظرو بعدنا الي الاثار (وانه حرص علي

ان تصبح علوم الفقه والكلام ولغه العرب والخط والادباء والشعر الفارسي والعربي متدواله.

والحقيقه ان مظارها الاعتناء والاهتمام سلاجفه الروم بعلم والعالما كثير ومتنوعه .وحيث يذكر ابن "ابيك الدوادارى ان الملك العادل نولر الدين محمود اثابك زنكي صحاب الشام اوفد سنه ١٢٦٢/(هـ٦١٩٩)محمد بن عبد الرحيم البلخي الي السلطان السلحوقي كيكاوس وبعدما التقاء به اجتمكع معهم .انعم عليه بهديه عبار عنى "طبق من دهب فيه تمثايل من عنبر ومن انواع الطيب ". فالما عاد محمد الي الملك الع٧ادل نور الدين .قدم اليه هذا الطبق فامر له بعشرات الالف دينار وخلع عليه.

كنا وصف المرخ "ابن بيبي "السلطجان السلجوقي عز الدين كيكاوس الالول باانه كان "ملك سخاؤهكاقطرات السحابى بلا حساب ....وكان بعد اكثار جوائز القراض من الفرائض ويصل في الصلاه الشعر بالاقصى الغابات "اي انه كان كثير الاغداق علي الشعر المداحين له فاعندما بعث اليه ابنه حسام الدين السالار قصيده من اثنين وسبيعين بيت من الموصل الي قصره انعم عليه لقاء كل بيت بميت دينار احمر . كارفع السطر نظام الدين احمد الارزنجاني بقصيده كان قالها فيمدح السلطان في جواب شمس الطبي .وانشدها في المحفل من مرتبه الانشا الي عرض ممالك الروم.

وكان السلطان علا الدين كبقباز الاول من اكثر السلطين السلاجفه رعايه واهتمام بعلم والعلماء .حيث بالغت سياسه سلاجفه الروم في راعيه العالماء حد كبير .بعد مالم بعالم الاسلامي بمشرق من كوارث مفجعه .نتيجه الغزو المغول واصبح المسلمون في اسيا الصغرى مالجاء

العالما ومركز الفكر وكان قصره اغلمضى يجذب العالماء والشعار والفنين والمعمارين من جيع انحاء العالم الشرقي.

وقد مر بنا كيف هاجر المنصوف الشهيد بهاء الدين بن الحسن البكرى المالقب بي ":سلطان العالماء"وقام في العاصمه السلطان وأقام في العاصمة السلجوقيه ثانيه وابنه جلال الدين الرومي وما التفوه من ترحيب ولايه واحترام وحمايه من السلطان والسلطنه .وتشيد المساجد والمدارس الزوايا الاسلاميه تذلم بقيه وصبغك تلك المساج بالطابع الاسلامى ونشر الثقافيه الاسلام يهمما كان له اكبر الاثر فى اعادة تشكيل مجتمع اسيا الصغرى على اسس اسلاميه وفى اعقاب قيام السلطان سليمان بن قطلمش بفتح قبليقبه عام ١٠٨٤ ميلادى (٤٧٧) طلب عن ابنعمار فى طرابلس ان بعده بقضاء شرعى لتصريف الاموال الدينميه والمدينه بالاقاليم كما ان السلطان فتح اسلان التانى استعانه بالاقاليم الفقهيه الشافعى عنبن هبه الله بن محمد بن على بن ابى البركان ابن البخارى (ت ٥٦٥هـ)فى ادجارة القضاء بالمدينه قونيه معى اهتمام سلاطين سلاجفه الروم بالعلم والعلماء غدت عواصم او من كثيرة فى اسياالصغرى مركزلانتشار الثقافه الاسلميه فى اسيا الصغرى مث مدن قونيهاو اقصراوسوسيه وغيرها من المكدن حيث اتخذ قلعه اللسام الثانى اقصى التى شيدها سنه ١١٧١ ميلادى (٥٦٦ هـ) قاعدة لغزواته ولم ينسى انعاش الحلقه العلميهلهذة المدينه فنشا بها المساجد و المدارس والقصور كما جلب اليها العلماء من اذربيحان ليبقوا بهذة المدينه ويذكر الواندى ان سلاطين ال سلجوق اختصوا العلماء من احصاب ابى حنيفه العطف والرعايه بحيث استقر محبسهم بقلوب الناس جميعه شيئا و شى وتتحدث احدى الوثائق السلجوقيه عن وجود منصب فى القصضر السلطانى يسمى استاذ السلطان تتشير هذة الوثيقه الى انالسلطان

السلجوقى كان يرغب فى تةاجد العلكماء والادباء بالقصر وتتحدث عن شخص زى مكانه علميه كان دائم التواجد فى مجلس السلطان فى هذا الفرض واشترط لمن يتقدم لوظيفه استاذ ***السلفطانهان*** يطون حجه فى اعلوم و الادب حتى يتمك تعينه فى هذا المنصب الى كان من ارقى المناصب فى السلطنه السلجوقيه وكان يطلب منه الحضور فى مجالس السلطنان ويقوم بتعليمه ما يراه مناسب من الادب ةالعلوم وكيفيه كتابه المرسلات الخلارجيه والداخليه والرياضيات بالاضاف الى علم التاريخ وغيرها من الامور العلميه والمعرفه كان الستاذ السلطان يحصل علي راتبه المخصص له من الخزانه السلطانيه ولقاء عمله .وكان يكطلق عليه احيانا لقب استاذ السلطان المعظم.

ونحن نعلم من المباني التي عفا عليه الزمن .والتي مازلت في قونيه .ان السلاجفة الادارك قد تحول من قبايله باربريه تبحث عن النهى والسلب الي وحده من اعظم الامم المتحضره في وقتهم .ولقد وصلت اسيا الصغرى في القرن الثانى عشر الي درجه رافيعه عاليه من الانجاز الحضاري لهذا المنطقه التي لما تعرف التعصب الديني .حيث قدما اليها العالما والشعراء والصوفيه من بقاء عربيه خاصه اقطار الشرق بعد الغزو المغولي لها حيثو ساهمو في تطوير كافه مناحي الحياه .وكان معظم الجاين والذين قدمو الي اسيا الصغرى هاربا من ضغط المغول والفرس هم عالما وفالسفه ورجال دين من بخاري وخاسان وفارس.

ولقد اهتما السلاجفه بالعالم والعلماء حتى ان الروندى وصف السلطان غياث الدين ابي الفتح كيخروبين السلطان فتح ارسلان :"انه بفضل دوله هذا الملك العادل سيتم احياء العلوم في هذا الديار فاانه ستعمل على ان تكون اثار الروم كما كانت من قبل ساده في جميع ارجاء العالم ٨ان اثارنا تدول علينا :فنظرو بعدنا الي الاثار (وانه حرص علي ان تصبح

علوم الفقه والكلام ولغه العرب والخط والادباء والشعر الفارسي والعربي متدواله.

والحقيقه ان مظارها الاعتناء والاهتمام سلاجفه الروم بعلم والعالما كثير ومتنوعه .وحيث يذكر ابن "ابيك الدوادارى ان الملك العادل نولر الدين محمود اثابك زنكي صحاب الشام اوفد سنه ١٢٦٢/(هـ٦١٩٩)محمد بن عبد الرحيم البلخي الي السلطان السلحوقي كيكاوس وبعدما التقاء به اجتمكع معهم .انعم عليه بهديه عبار عنى "طبق من دهب فيه تمثايل من عنبر ومن انواع الطيب ". فالما عاد محمد الي الملك الع٧ادل نور الدين .قدم اليه هذا الطبق فامر له بعشرات الالف دينار وخلع عليه.

كنا وصف المرخ "ابن بيبي "السلطجان السلجوقي عز الدين كيكاوس الالول باانه كان "ملك سخاؤهكاقطرات السحابى بلا حساب ....وكان بعد اكثار جوائز القراض من الفرائض ويصل في الصلاه الشعر بالاقصى الغابات "اي انه كان كثير الاغداق علي الشعر المداحين له فاعندما بعث اليه ابنه حسام الدين السالار قصيده من اثنين وسبيعين بيت من الموصل الي قصره انعم عليه لقاء كل بيت بميت دينار احمر . كارفع السطر نظام الدين احمد الارزنجاني بقصيده كان قالها فيمدح السلطان في جواب شمس الطبي .وانشدها في المحفل من مرتبه الانشا الي عرض ممالك الروم.

وكان السلطان علا الدين كبقباز الاول من اكثر السلطين السلاجفه رعايه واهتمام بعلم والعلماء .حيث بالغت سياسه سلاجفه الروم في راعيه العالماء حد كبير .بعد مالم بعالم الاسلامي بمشرق من كوارث مفجعه .نتيجه الغزو المغول واصبح المسلمون في اسيا الصغرى مالجاء العالما

ومركز الفكر وكان قصره اغلمضى يجذب العالماء والشعار والفنين والمعمارين من جيع انحاء العالم الشرقي.

وقد مر بنا كيف هاجر المنصوف الشهيد بهاء الدين بن الحسن البكرى المالقب بي ":سلطان العالماء"وقام في العاصمه السلطان وقد سبقت الاشاره الي مدى الحولا التي استقبل بها السلطان كيقباد الاول الشيخ شهاب الدين أبو حافظ عمر السهروردى سنه ١٣٣٠(٦١٧هـ)وذلك عندما قدم اليه وفد من قبل الخليفه العباسي الناصر لدين الله مهما بالاعتلائه عرض سلطنه سلاجقه الروم باسيل الصغرى اما عن المنشات الدينيه والتعليمه التي شيدها سلاطين سلاجقه الروم والتي سوف نعترض لها في العماره والفنون فهى كثيره ومتنوعه والحقيقة أن السلاجقه الروم آثارا كبير شاخصه للعيان في آسيا الصغرى تدل على حضوره مكتبه تؤيدها التحقيقات الاثريه في بعض المواطن وكفى اماره السلاجقه فخرا أن جعلت العلوم والثقافه تتمكن من ربوع الشرك وهذا الصفحه مشرفه لها مناصرتها العلوم والعلماء فقد انتشرت المساجد الكبير والمساجد الخشبية الصغير في جميع المدن اسيا الصغرى التي وقعت تحت سيطره سلطنه سلاجقه الروم فبالنسبه للمساجد الصغيره فقد كانت مساجد خشبيه صغيره اصبحت لاحياء الصغيره لايسبقها المسجد الكبير التي لاتستخدم عاد في صلاه الجامع الكبير كالجمع والاعياد كما شيد سلاجقه الروم عدد كبير من المساجد الجامعه الكبرى في ارجاء اسيا الصغرى الاسلاميه والتى كانت الى كونها اماكن عباده فقد كانت ايضا اماكن تعليميه ويكفى ما ذكره ابن بطوطه انها كانت مدينه" لازق" وحدها سبع مساجد جامعه وحينما مر ميناء انطاليا الشهير على البحر المتوسط وذلك بها مسجد جامع كما وجد ايضا في ميناء سينوب على البحر الاسود مسجد جامع من احسن المساجد و هذا بالاضافه الى المساجد

الكبيره التي شيدها سلاطين الروم في نهايه القرن الثاني عشر الميلادي وبدء القرن الثالث عشر ممن المؤسسات التعليميه ذات اهميه الكبرى في اسيا الصغرى التى تعتبر من اهم المؤسسات التعليميه التى ظهرت في سلطنه السلاجفه الروم وكانت يناسب عمل تلك المدارس كان مؤسسات للدراسه الدين الاسلامي وتشريعها وعلومها فانها قامت كذلك بالعديد من المهام الاخرى كمعاهد لتعليم الطب والممارسه العلاج ولانشغال بدرسه الغلك ورصد الكوكب ايضا وبعباره اخرى فان تلك المدارس لم تقف عند حد الاكتفاء بالدراسات الدينيه وحدها .وبذلك تكون المدارس قد لعبت دورا لا يقل اهميه عن دور المساجد بل كانت كمؤسسات تعليميه متكمله لدور المسجد في الحركه العلميه الدينيه والتعليمه والجدير بالذكر ان المدارس لم تكن تعرف في زمن الصحابه ولا التابعين وانما حدث علمها بعث بعث الاربعماليه من سنى الهجري واول سن حفظه عنه أنه بنى مدرسه في الإسلام كام من اهل نيسابور وكان وكان السلاجقه قد تاثروا بتعاليم المذهب الحنفي ويليه المذهب الشافعى عن باقى المذاهب السنه الاربعه.

وما يؤكد انتشار تعليم المذهب الحنفي الذي اصبح المذهب الرسمي في السلاجفه المسلمين في اسيا الصغرى ان معظم المخطوطات من الاعمال المختلفه الفقهاء الحنفيه من وسط اسيا قد وجد ت في المكتبات التركيه والعديد منها ثم نسخه في اسيا الصغرى وربما بعض منها ايضا قد احضر من وسط اسيا عن طريق المهاجرين والفارين من الغزو المغولى او من المهاجرين الذين جذبهم وهبات حكام السلاجقه. ومن المدارس السلجوقيه الاسلاميه الكبرى في آسيا الصغرى المدرسه التي اسمها الأمير "اختبارالدين حسن بن جابراس "وهو يونانى الجنسيه ثم اعتنق الإسلام وكان من أحد أمراء الحرب السلطان قلح ارسلان

الثانى(١١٥٦_١١٩٣م)وصار من اقرب المقربين اليه وكان السلطان قلج ارسلان علي الملك على يد ابنه قطب الدين وذكر النويري انه كان عن اكابر الاعزاء الديانين والقاه في الطريق فجاه طلب لياكل من لحمه فثار الناس وقالو :لاسمعناولا طاتهه:هذا امير كبير في الإسلام وبنى المدرسه للعلم وله صدقات داري ولا نتركه تاكله الكلاب فاكر عند ذلك بدفنه قدام في مدرسته.

وثمه مدارس سلجوقيه اخرى كانت مخصصه لدراسه تعاليم الشريعه الاسلاميه في قيصريه وهي "خوندمدرسه"وبراج الدين"والمدراس الصاحبيه"ومدارس حاجى قلج.

والملاحظه ان سلاطين السلاجفه كان يبضعون العلم والتعليم في المرتبه الاولى وقبل كل شيء حتى ان السلطان عز الدين كيكاوس الاول اثناء حصارته المدينه انقرد_ التي كان علاء الدين الذي اخوه قد تحصن فيها لمناقشه على حكم السلطنه و انه لن يحصل له امن كلى وفراغ اصلى الابفتحها وعندما حاصرها أسس السلطان امام المدينه مدرسه حتى اذا تيسر الفتح يقف عليها الاوقاف ولما استخلص انقره وفي العهد والندر واقف الاوقاف غير انه بعد ماتوفى السلطان عز الدين كيكاوس واعتلى اخوه عرش السلطنه بذكر ابن بيبي ولما بلغ الدور سلطنه علاء الدين أعطى مقاله بهدم النيه واعطانه الاوقاف.

وكانت المدارس السلجوقيه عملت طول البلاد وعرضها في آسيا الصغرى وهي كثير ومتنوعه مثل مدارس ارطوقوش في اتابي قرب اسبرطه. مدرسه انجه مناره في قونيه والمدرسه التوام(جفته مدرسه)في قيصريه ومدرسه الغازى خليفت في مدينه اماسيه ومدرسه صارجالي وغيرها من المدارس المختلفه وتعكس كثره هذا المدراس وتنوعها مدى

مدى اهتمام السلطنه السلجوقيه بالحركة العلميه والنشاط الفكري خاصه وان هذه المدارس اهتمت بكافه فروع العلوم.

وقد اوقف سلاطين سلاجقه الروم الاوقاف لانفاق على هذا المؤسسات التنظميه المختلفه سواء كان مسجدا او المدرسه وقد راينا وثيقه الوقف التى حررها الأمير السلجوقى التون ابا في قونيه ١٢٠٢والتي توضح انه خصص جزاء من دخل الوقف لتعليم القرآن الكريم لمن عين حديثو العهد بالاسلام سواء كانت مسحيين او يهود او مجوس وسواء أيضا كانو يعيشون في آسيا الصغرى او خارجها.

كما أن سلاطين السلاجقه بااسيا الصغرى خصصوا الرواتب لشيوخ العلم والموظفين والعمال والوثائق السلجوقيه تشير بوضوح الي ذلك فنجيم الدين كان يشتغل بالتعليم والفتوى وتشير ولبقيه اخرى الي تعيين المدعو سراج الدين أحمد التركسانى الاصل مدرسا في مدرسه مظفريه في اقصر ويطلب منه فيهيا ان يقليم الطلاب ويرشدهم ثم يختبرهم في نهايه كل شهر وعلى الطلاب احترام اساتذيهم من الوقف المقرر للمدرسه مثلما كان الحال مع المدرسين السابقين له كما كان الطلاب والموظفون والخدم يحصلون علي نصيبهم ايضا من دخل هذا الوقف.

أما عن العلماء والفقهاء الذين قدموا من اسيا الوسطى ونشاطهم الفكري وانتاجهم العقلي فعلى الرغم من ان الحياه في اسيا الصغرى كانت يغلب عليها طابع الحروب والجهاد وعدم الاستقرار فان نسبه الى اسيا الصغرى واكثر من عالم وزاهد وتقى وفقيه ومحدث والحقيقه ان الصله وثيقه بين الجهاد في سبيل الله وبين الحياه العلميه ويقول الله تعالى(وما كان المؤمنون لينفروا كافه فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفه ليتفقون في الدين ولينذر قومهم اذا راجعوا اليهم لعلهم يحذرون اي ان الذين يخرجون الي الحرب يتعلمون الكثير من السفر و من لقاء العدو و فيعودون لينذروا

عن لم يخرج منهم والرجح ان العلماء وجدوا الجو اديني والمناخ العلمي الذي يساعدهم على البحث والنقصي فى فترات الحرب وايضا فى فترات السليم التي تتخللها الحروب.

وكان ارتحال العلماء بين بقاع العالم الاسلامي في العصور الوسطى من الاشياء البديهيه والمعروفه في تلك العصور فمن زار اسيا الصغرى من هؤلاء العلماء الاديب الشيخ ابو الغنائم سعيد بن حمزه بن احمد بن المسن بن سارخ النيلي الكاتب بغداد والذي سمع وتعلم شيوخ ذلك العصر وله شتر كثير في مدح الام والولاه ارتحل الى البلاد الروم باسيا الصغرى والشام وسمي بالنيل نسبه الانهر حفر الحجاج بن يوسف الثقفي في العرق وساهم باسم نيل مصر.

ومن رجال العلم الذين قدموا الى اسيا الصغرى الاديب اسماعيل بن مفروج بن عبد الملك من ابراهيم ويعرف بابن معيشه الكناني السبتى من ابي العرب اهله سبته بالمغرب وهو اديب فاضل وكاتب لهم معرفه حسن يعلم الكلام والادب وله شعر جيد تنتقل من بلاد الاسلام من حلب الى بغداد الى بلاد الروم ومنها الى مصر.

ومن الادباء والعلماء الذين زاروا اسيا الصغرى. الحسن اسحاقى الحلب الشتى (٥٩٣ هـ)نقيب مدينه مدينه حلب ورائيستها ووجيفهان وعالمهم وكان عارف القراءات والحديث والادباء والتاريخ وله النظيم والنشر كما كان فصبحا مفوها وديانه والتعبد ولى كتابه الانشاء للملك الظاهر غازي ثم انف من ذلك واستعفى واقبل على الانشغال والتلفون وعمل بمهام السفاره حيث نفذ رسولا الي بلاد اسلاميه كثيره منها بلاد الروم. تمام ال سلجوق انفسهم يحبون الشعر والشعراء وكثير ما شملوا الشعراء بالرعاية واغذقوا الهبات والشعر يملأ صفحات تاريخ ابن بيبي بل إن بعضها كان على لسان أبناء قلح وكان الثاني الذين كانو يعكفون على

دراسته ونظمه كنت انتشر الشعر الصوفى في السلطنه بشكل كبير وكان مظهر من مظاهر اهتمام السلاجفه بالادب . فقد كان السلطان ركن الذين سليمان شاه محباه للشعر والعلم حتى ان ابن بيبي وصفه بأنه كان من أنواع العلوم ربنا كما كان يرشد الفضلاء والشعراء وأرباب الفضل وحينما إرسل اليه امام الكلام ظهير الدين الفأر يالي _وهو من شعراء القصيده_قصيده مشهور سليم قصاده جائزه ثمينه.

وهناك اسماء للعديد من الشعراء الذين احتضنتهم سلطنه سلاجفه الروم وليهم شعرهم المتميز مثل شمس الدين حمزه بين المؤيد الطغرانى سلك الساده نظام الدين أحمد الأمير العارض المعروف بابن محمود الوزير الذي كان في انشاء العشويات ثانى الفرودس كما كان الشاعر ملك الشعراء الفرس في آسيا الصغرى .عاش في كنف السلطان علاء الدين كيقباد وكان مداح بلاطه وبلاط اخلافه غياث الدين كيخسروا الثالث(٦٨١_٦٦٦هـ) واستمرت الحركه العلميه في آسيا الصغرى متنعه في فروع أخرى مختلفه بصفه عامه في الجانب الثقافي وبصفه خاصه في العلوم الدينيه ففي العلوم الحديث والفقه برزت اسماء للعديد من المحدثين الذين لعبوا دورا كبير في رفع شان التدريس عليهم الحديث في آسيا الصغرى وكان هؤلاء ركن ولد وعاش في آسيا الصغرى ومنهم فن وفدوا عليها من بقاع العالم الإسلامي في ذلك الوقت وقد اشتهر في من هؤلاء المحدث الشيخ ابو القاسم عبد الحميد عبد الخالق ابن المبارك. كما اشتهر أيضا الشيخ المحدث سعيد بن حمزه احمد بن سارح ابو الغنائي والذي ارتحل بين بلدين العالم الإسلامي. وتدل الي بلاد الروم باسيا الصغرى قبل وفاته في رمضان(١٢١٦_٦١٣هـ) وكان كاتبا ببغداد الي كونه من علماء الحديث كان له شعر حيث مدح جماعه من الأمراء والولاد. كما اشتهر أيضا من علماء الحديث والفقه محمد بن

الإمام العلامة ابن الخير احمد بن إسماعيل القزوبنى والذي تفقه علي يد ولده والآخرين من علماء بغداد.

واشتهر من رجاء الحديث الشيخ ابو احمد محمد ابن عبد الرشيد بن على بن سليمان سمع الحديث بن شيخ همدان اسمه ابو الخير محمد بن أحمد ومن جده الحافظ أبى العلاء الحسن بن أحمد وغيرهما وحدث ببغداد في مدينه اقصر بااسيا الصغرى.

كما ينسب الي آسيا الصغرى الشيخ المتحدث .مكرم بن مسعود بن حماد بن اب دوام الايادى ابو الغنائيم الابهرى والذي ولد سنه (٥٥٦هـ)وولي القضاء بسلطنه سلاجفه الروم وقد تفقه في مذهب الإمام الشافعى وتوفى بابهرزنجان سنه ١٢٣٣م(٦٣١هـ).

وتشير المصادر التاريخيه الي عدد كبير من علماء الفقه الذين ودرسوا علوم الفقه في مدن آسيا الصغرى الاسلاميه كما أن ال سلجوق اهتمو بالدرسات الفقهية.

وكانت المدارس السلجوقيه تولى عنايه دي مؤلفات هؤلاء الفقهاء خاصه المذهب الحنيفي ومؤلفاتهم التي تملا المكتبات التركيه واستفادت السلاجفه من العلماء الوافدين عليهم من بلدان المشرق الاسلامي بعد حدوث الزحف المغولي على اوضانهم واستفادوا وايضا من مؤلفاتهم ومجالهم العلميه التي كانت دائما الانعقاد في مدن اسيا الصغرى المختلفه مثل قونيه وسيواس وقيصريه وغيرها من المدن الاسلاميه.

وتبقى لكي نوضح مدى ما وصل اليه الفقهاء في سلطنه السلاجفه الروم من مكانه ونفوز ما قام به الامام الترمزي الذي كان يشغل وظيفه القضاء في قوله حيث اصدر فتوى سنه١٢٠٥(٦٠٣هـ) بعد ما احقيه غيان الدين كيخسرو الاول في تولى حكم السلطنه وذلك لمن اكتشف وجودهم يلجؤون الي البيزنطيين من خروج على مبادئ الدين الاسلامي و لانه تزوج من

ابنه الامير اليوناني مفروزمس والان امه يونانيه ويلخص المؤرخ ابن بيبي هذا ان النقطه في العباره التاليه حيث يقول:؛ قيل انه يقول ان السلطنه لا تصل الى غياث الدين لان لذلك أظهر توليه لولاه الكفار وارتكب في ديارهم مناهي الشرع.

ومن الفقهاء الذي قدمو الي سلطنه سلاجقه الروم خارج آسيا الصغرى الفقيه "محمد بن علي يحيى ابو عبد الله الثقافي الذي قدمه من مصر وكان الامام فاضل ولي ولي قضاء مدينه اقصر وتوافى بمدينه سيواس١٢١٥(٦١٣هـ) كما برز اسيم الفقيه محمد بن عبد السلام ابو بركات السنجابي الذي على الذي اتفق على المذهب الشافعي ودرس باربل وتولى قضاء مدينه مصريه الى ان توفي بها ١٢٣٣(٦١٩هـ)كم قدم من قزوين بين الى اسيا الصغرى وعمل واعظا بقيصريه و تولى القضاء في سلطنه سلاجقه الروم الفقهيه ابوبكر محمد الطالقانى وبقى هناك حتى توفي سنه ١٣١٧م(٦١٤هـ) واوفد رسولا من قبل الملك الكامل في مصر الامام افضل الدين الخوارزمي هـ٦٤٦ الى سلطنه سلاجقه الروم ثم استقر لفتره وتولى القضاء هناكويشير ابن العظيم الي العديد من الباقه والقضاء في سلطنه سلاجقه الروم منهم احمد عبد الرحمن بن أحمد والقاضى أحمد بن عبد الحميد بن محمد الفيس. والذي تولي القضاء في مدينه ملطيه والذى أخذ ذا لسان وبيان والفقه.

كما كانت تجرى في سلطنه سلاجقه الروم المناظرات الفقهيه الدينيه وقد أفردت ابن العديم في تاريخه قيما للحديث في الفقهيه العالمه وهرجع بها الي ديار سلاجقه الروم في آسيا الصغرى جرت بينه وبين الإمام الشعرانى وهو من كبار فقهاء السلطنه مناره فقهيه في مساله المجتهدين وهذا يعكس بشكل التأكيد مدى تطور علوم الفقه ونظام الاجتهاد في الإسلام في اقليم آسيا الصغرى.

واهتمت سلطنه سلاجقه الروم بااسيا الصغرى بحفظه القرآن الكريم وتقرا في المصادر عن وجود العديد من القراء القراءات الصالن ابو عبد الله محمد البصرى مقرء بلاد الروم وكان قد قراء القراءات بدمشق علي يد شيخ القراء متنجب الدين الهمداني وايضا المقري الشيخ ابو احمد محمد الهمدانى"بمدينه اقرا.

ولقد تزدهر الفكر الصوفى في آسيا الصغرى بشكل كبير وذلك لقدوم عدد كبير من رجال وعلماء الصفوه الي آسيا الصغرى . وكانت مؤلفات ودراسات الصوفيه تدرس في المعاهد والمدارس السلجوقيه في آسيا الصغرى بجانب العلوم الدينيه الأخرى والتفسير والحديث والفقه وفي مقدمتهم شهاب الدين السهرودى ممشى وقواعد الصوفي الكبير محى الدين ابن عربي الذي بعد من أكبر المتصوفه في الإسلام بمؤلفاته العزيزه والذي جعل والذي جعل من التصوف نظاما دينيا وفلسفيا في ان واحد.

اما في مجال العلوم الأخرى فبرز اسيم يوسف بعد سعيد المجستانى الذى قدم الي آسيا الصغرى من شرق ايران والف بمدينه سيناء مؤلفه مينه المفتى سنه ١٣٤١_١٣٤٣م(٦٣٩هـ)وهي سأله مهمه في القانون والتي لقيت قبولا واسال في الشرق الإسلامى.

وفي درسات المنطق برز العلامه الشيخ سراج الدين الاموى كاتب الدراسات الفقهيه وله مؤلفات عديده يطول ذكرها مثل التحصيل والباب في أصول الدين.

كما كان هناك جماعه من العلماء من تلاميذ الإمام اخر الرازي الذين كانو اصحاب تصانيف جليله في المنطق والحكمه وبينما هنا مايختص آسيا الصغرى وهم .واثير الدين الابهرى. وتاج الدين الاموى. وايضا سراج الدين.

كما أشار ابن أبي اصبعه الي العالم عبد اللطيف البغدادى الذى الف مقاله في أثناء إقامته ببلاد السلطنه السلجزقيه بآسيا الصغرى جاءت بعنوان. كيفية استعمال المنطق.

ومن الذين ارتحل الي بلاد الروم الشيخ صفى الدين الهندى واجتمع براج الدين الارموى وكانت له تصانيف في علم الكلام واصوال الفقه وكل مصنفاتها حد جامعه.

كما كان السلطان ركن الدين سليمان (١١٩٥_١٢٠٤م)يميل الى مذهب الفلسفيه ويحسن الى طائفتهم يقدمهم وكان كل من يدعى بهذا المذهب ياتي اليه ولهذا طائفه من واحسان كثيرا لانه كان عاقلا يحب ستر هذه المذاهب لنفر الناس عنه ومذهب الفلاسفه هو قريب منه بحضر يوما عنده فقهيا متناظر واظهر شى من الاعتقاد الفلاسفه فقام الفقهي ليه ولطمه و شتمه بحضره وركن الدين سكت ولو تكلمت وخرجت الفقيه قال وقال له ركن الدين يجب على مثل هذا في حضرتك ولا تتناقش فقال قل تكلم لقتنا جميعا ولا يمكن اظهار ما تريده ان ولقد تنفض في مجال الفلسفيه لركن الدين سليمان العالم محمد بن غازي كتاب روضه العقول و قد صنفه لركن الدين بعد سيطرته على ملطيه سنه ١٣٠١ ميلادها اما عن كتاب التاريخ في آسيا الصغرى في سلطنه فى السلاحفه الروم فالطلع على الاوضاع السياسيه لي آسيا الصغرى ما شاهدت من تلك الاراضي من الحروب والمعارك طاحنيه البيزنطين والمسلمون والصليبيون في القرن الثاني عشر يدرك ان هذه الاحداث شكلت ماده متعصب المؤرخين غير أن الوثايق والمدونات والسجلات التاريخ للمؤرخين المسلمون للاسف فقط معظمها والحقيقه انه على الرغم من ان هناك العديد من المؤلفات التي اسهم بها العلماء المسلمون لسلطنه السلاحقيه والروم في الحركه الثقافيه ان ان المصادر التاريخيه قاطع

بتاريخ فيهم المتنوع في اسيا الصغرى هي بجملتها معدوده على الاصابع حتى وقعت كتاب هذه الدراسه اولها كتاب واحد الصدوروايه السرور عن تصنيف الراوندى والذي عاش في بدايه في العراق ثم انتقل الى اسيا الصغربحيث عاش في بلاد غيتان الذي كاخروا بين فلح وارسلان والف باسمه هذا عام سنه ١٣٠٣ ميلادي و ٥٩٩ هـ وكتب اخر باسم تاريخال سجلوق مجهول المؤلف والف باسم علاء الدين ويلخصها الكتاب الشهير بالامبراطور ناصر الدين يحيى الشهيد با بن بيبي ورئيس ديوان الكفر في عهد السلطان كيقاد الاول والذي يعتبر التاريخ اكثر من دون تاريخه.

أما عن الحركه العلميه في مجال العلم كفرع من فروع العلم نود مانشير الى ان راضي اسيا الصغرى كانت مهينه لمهمته طبيه مما يؤكد ذلك ما تشير اليه المصادر من ان الظروف الجغرافيا الطبيعيه ساعدت على ذلك حيث كانت تتمتع هذه الاراضي بالعديد من الحمايات وعيون الماء المعدنيه الساخنه والطبيعيه والتي كانت تستخدم في علاج العديد من الامراض فقط اشهر رجال الاوروبي ماركوبولو انه في مدينه االوزنجان اجمل وافتح حمامات المياه الساخنه التابعه من الارض والتي ليس لها مثيل في اي مكان اخر.

كما اشاره ابن سعيد المغربي على انه بالتراب من انتره(انكوريه) في مدينه سلطان لولي كان يوجد وحصمامين ماؤهما كالمياه الحاميه لا تحتاج الى تسخين وهي وهو جاب يا علي الدوام شديدا الحراره لا يزيل الناس يوجد بها كثيرا الى موقعهم بتتابع ثرماى.

أما الرحاله بطوطه التي تسبب فيها اسيا الصغرى وهو فاذهب الى اماكن التي يعالج فيها المرضى عند حديثه عن المدينه برصا(بروما) حيث يقول مدينه كبيره عظيمه تجف بها العيون الجميع ويخرج نهر شديد الحراره يسبب في بركان عظيم وقد بنى عليها بيتان احدهم للرجال

والاخرى للنساء والموضه يستشفون منها ويعيشون عليها من اكثر البلاد. وتوضح الابحاث الاثريه ان كان يوجد في كل مدينه باسيا الصغرى مستشفى العلاج المرضى ويلحق بها مدرسه للطب مدرسه التوام والتى كانت تضم مدرسه للطب والتي انشاها غياث الدين كيخرو الاول ومستشفى اخته جوهره نسبيا.

كما انشأ العديد من المستشفيات التي كانت بصفه عامه اماكن يمارس فيها التطبيق العملي لما يدوس نظريا في مدارس الطب وكانت تعالج بها الامراض المختلفه الى جانب بعض الدروس كانت تعطى للمرضى و كانت معروفه لدى الاطباء اوائل القرن الثالث عشر معالجه مرضى الاضطرابات العقليه بالموسيقى والابحاث بالنوم وانتشرت تلك المستشفيات التي كانت في المسببات مختلفه مثل داء الشفاء او الشفائيه ودار العافيه ودراء الصحه.

وتشير المصادر الاستعانه السلاجفه الروم المسلمين في اسيا الصغرى بالعديد من الاطباء على المسلمين من مختلف الدول الاسلامي مثل مثل شمس الدين ابي عباس احمد المعروف بابن هبل الخلاطي المولود ببغداد سنه ٥١٥ هـ والذي يراعى في علم الطب حتى فوق اكثر اهله زماله وله كتابان المختار في الطب .والطب الجماع و اثناء بقائه في اسيا اقامه السلطان كيكاوس بن كيخسرو اكرامه كثيرا وايضا الطبيب كمال الدين الحمصي التي تشتغل بالصناعه طب وسافر الى اسيا الصغرى سنه ١٣١١م.٦٠٨هـ. وكان الملوك اكثر الاعيان يطلبون ويطلبون لما ظهر من علمه ويتحدثون ابن العديم على الطب ابي بكر يوسف الملقب بالتقي الذي ظهر في علم الطب و اتصل بخدمه علاء الدين ومن بعد السلطان غياث الدين كيكاواس ولذلك الرغم عن انتعاش علم الطب في اسيا الصعوبه عند المسلمين الا ان الاطباء الغير مسلمين

يعني الاطباء اليهود والمسيحيين ظل محتفظين لفتره طويله وشهواتهم العالميه ولا علميه في مجال الطب ويقفل الدليل على ذلك انه في عاصر الامارات التراكعانيه كان هناك طبيب يهودي بقصر الامير التاكانى محمد بن ايدين وكان يتمتع بمنزله رفيعه لبراعته في الطب واثاره ذلك حفيظه الرحله ابن بطوط وحينما استفسر عن سبب ذلك وجود عليه يقول كلنا محتاجين اليه ومن الاطباء السرين المشروع بين الطبيب حسون الرهاوي الذي استدعى الي مملكه قلج راسلان وخدم امره في دولتها عثل الامير سيف الدين وايضا اختار الدين حسن المستشار السلطان قلج ارسلان الثاني.

واشتهر ايضا في منطقه الطبيب عيسى الرهاوي في التلميذ الطبيب حسن وابوها قوي وكان قد انتقل الى قبيله خذ ملكها سنه ١٣٤٤ ميلادي ومن الاطباء المشهورين أيضا الطبيب الجراح باسيل الذى استدعى لعلاج السلطان كيقباد الاول وجديد بالذكر في ذلك المقام ان عالم النباتات الشهيره ابن البيطار التي صنف كتابالادوايه المفرده ال اتجها الي اسيا الصغرى وعمل الفتره هناك بسلطنيه سلاجفه الروم كصيدليه ماهر.

الحياه الفكريه عن باقي الإمارات التركيه.

أما عن الحركه العلميه عند بقيت الامارات الاسلاميه في اسيا الصغرى كالداشمندبيين وبنى متكوجك وبنى سلدق قبل انهيارهم وانضوائهم تحت سلطته السلاجقه والحاصل أن العلاقات بين هذه الامارات لم تسير وزير واحد اذا كانت منقلبه بين السلم ناره والحرب ناره اخرى وبالتالي ادى الي تركتها هذا القوى من مدارس والمساجد

والمستشفيات التعليميه وكان الحقائق العلميه كانت منتعشه ويكفي انه تعليم ان لفظ دانشمند فارسيه معناها المعالم والفقيه هو يتالف من الكلمه الفارسيه بمعنى علم والمقطع منذه بمعنى ذو اصاحب وقد حمل العلماء في بلاد ماوراء النهر لقب دانشمند اد الفارسي والذي كان ينطلق (دانشومند) باللهجه المحليهالحياه الفكريه عند الأرمن.

أما عن الحركه العلميه والنشاط الفكري في جنوب آسيا الصغرى قلبيقه مقر الأرمن فالحقيقة أن الحروب المتواصلة لم ت اما عن الحركه العلميه والنشاط الفكري في جنوب آسيا الصغرى قلبيقه مقر الأرمن فالحقيقة أن الحروب المتواصلة لم تمنع الأرمن من انتعاش هذا الحركه حيث أسس الكاميرون االزمنى منهم القدبس نرسيس شنورهالى الذي كتب الشعروله كده مؤلفات دينيه وتفسيرات للكتاب المقدس وايضا القديس نرسيس له عدد كتب الدينيه من أبرز الكتتاب أيضا كريكورد دغا البيطريرك ايكشتكش وممن الادباء أيضا اربسيد اكيس الذي كتب عن كوارث وسقوط الارمنينه.

الحياه الفكريه عند البيرنطيين:

أما على النشاط الفكري في الجانب البيرنطيين والصليبيين في اسيا الصغرى فالواقع أن الدعوه التى اطلقها البابا اوبان الثانى في كليو مونت كانت في الحقيقه دعوه مفطرتش لطاقاته المؤالفيين والمؤرخيين وكانت التاليف تقريبا قاصر على التاليف الديني ولذلك فإن الذين قاموا الكرب الاوربيه وعليه مدارها انذلك فإننا نرى اشخاص كثير من المؤرخين الذين تتقولها احداث الحروبيه الصلبيه وايضا البيزنطيه التي دارت في آسيا الصغرى وليهم الصورى وانا كومنين واوراد دوبل والمصريين منهم. ومن اشهر الادباء والمؤخره بين الذين برزوا في النصف الثاني من القرن

الثاني عشر و اوائل القرن الثالث عشر والذين ارتبطوا اسماءهم باسيا الصغرى الاخوان مخيل وهم من المواطنين اسيا الصغرى من عائله متوسط من مدينه خونای ولقد لقبنا ايضا خونياتس نسبه لنفسه راسيهم وتخصصه نيكتاس في الدراسات اللاهوائيه ووصل الى وظيفه وليسا ثقافه مدينه اثنيان اما ميخائيل فقد اكمل تعليمه في القسطنطينيه وقد شغل لمده وظائف في للبلاط البيزنطىوعندما ستضت القسطنطينية عام١٢٠٤فى ايدي الاتين هرب الي نيقيه حيث الف مرجعا تاريخيا يعتبر وليبقه هامه تغطى الفتره الممتده من ١١١٨الي ١٢٠٦م(٥١١_٦٠٢هـ)

وكانت اللغه العربيه لها شأنها في آسيا الصغرى والحقيقة أن المدينه الاسلاميه يعتصر العربي والفارسي غلبت على اسيا الصغرى بعد تتركه فقد كان العنصر العربي غالبا في جنوب آسيا الصغرى وفي جنوب الشرقى ابتداء من القرن الحادي عشر الي منتصف القرن الثالث عشر حتى ان الاتراك المستوطنين في هاتين المنطقيتين كانو اخدين في التعرب مكانه اللغه العربيه لغه العقيده وطلاب العلم اما اللغه التركيه كانت لغه السكان اليوميه للشعب ولما بدات الكتابه بها في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري كان تبدا في صوره نادره وقد سادت اللغه التركيه السلجوقيه لغه الفاتحين في اخر الامر وكثير من ما تتطلبه ظروف المتغيبه الجديده الاجتماعيه والاقتصاديه من المحكومين من سكان اسيا الصغرى الوطنيين و تعلم لغه الفاتحين بعد ان اصبح الامر ضروري حاكما لتسهيل اعمالهم اليوميه فلقات الحكوميه والدواوين ونقصور والنشاط التجاري وتتضرائب التي كانت كلها تحتهم عليهم تعليما.

كما شهدت اسيا الصغرى في القرن الثاني عشر خريطه لغويه في الجيوش الصليبيين التي عبرت اسيا الصغرى من معظم شعوب

اوروبا في ذلك الوقت وعموما فان سلطه السلجوقيه كانت شعب المترجمين الذين اصطحبهم السلاطين معها.

اما عن التبادل الثقافي بين القوه المختلفه في آسيا الصغرى هو فعلى الرغم من الحروف التي دارات بين السلاجقه الاتراك والبيرنطيين فيه على الرغم من الدلتين السلجوقيه والبيزنطيه فان الدولتين رغم عدواتهما النظريه كانتا تتمنياه في الواقع بغلاقات يغلب عليها الود وكانت الصلاب الفكريه وتبادل الافكار بين الحكام الجدد لشرق الاناضول وحكامه القدامى مستمره وواسعه النطاق.

لم تتوقف العلاقات الثقافيه بين الأرمن والبيرنطين في آسيا الصغرى خاصه العلاقات الدنيه فعلى عهد الإمبراطور مانويل كومنت كانت المناقشات الاهوائيه من احب الامور اليه وكان يشكل حلقات وندوات لمناقشه بعض النقاط المذهبية والفلسفية ويشترك بيها بنفسه داخل القصر.ويدعو إلينا راجل الدين.

وهكذا لم تمنع الحروب التي دارت طوال القرن الثاني عشر من استمرار الحركه العلميه والنشاط الثقافي فقد كان هناك علماء نشيطون متديتون غير وثانيتين تحولت أفكارهم الي مؤلفات عظيمه.

عاشرًا
أفكار ختامية

أفكار ختامية فى تاريخ وحضارة
أوروبا العصور الوسطى

الإسلام وبيزنطية والعام المسيحى :

خلال الجزء الأكبر من العصور الوسطى انقسمت إمبراطورية البحر المتوسط القديمة الرومانية إلى ثلاث وحدات ثقافية مميزة : العالم المسيحى الغربى ، العالم المسيحى البيزنطى ، والعالم الإسلامى . وتميزت هذه الثقافات الثلاث بوجود اختلافات عميقة فى الإبداع والأسلوب ، ومع ذلك فمن وجهة نظرنا المستقلة احتوت تلك الثقافات على أمور كثيرة مشتركة .

إذ أم كـــلا مـــن تلـــك الثقافـــات هـــى بمثابـــة وريـــث للحضـــارة اليونانية – الرومانية ، كما أن لكل منها وجهة نظر دينية قوية نقلت بغزارة من التراث العبرى .

وفى الواقع فإن كلا منها تدعى بأن الله الذى ورد ذكره فى كتاب العهد القديم هو خاص بها ، وتنظر كل منها إلى التاريخ على أنه صراع أخلاقى مرير يبدأ منذ بداية الخليقة وينتهى يوم الحساب ، وكان هناك قدر كبير من التبادل والتداخل بين الثقافات الثلاث فى العصور الوسطى ، ومع ذلك لم يحدث أن تأثرت إحداهما بشكل حاسم بالثقافتين الأخيرتين ، وبالرغم من أن كلا منها تعرض للإثارة والتحفز من بعضها البعض فإن الواحدة منها صنعت قدرها بنفسها .

وحتى حوالى القرن الثانى عشر الميلادى كان العالم المسيحى فى العصور الوسطى أكثر الثقافات الثلاث تخلفاً وبدائية ، وكان عليه أن يتعلم الكثير من الإسلام وبيزنطة ، وتشكلت التركيبة الإندماجية للتراث الكلاسيكى والمسيحى والجرمانى بطرق كثيرة بفضل الحضارتين المتجاورتين ، بيد أن تأثير هؤلاء الجيران على الغرب أعاقه عداء الغرب الشديد تجاه المسلمين ، وكذلك البيزنطيين " الضعاف ، والخونة " ، وفى القرنين الثامن والتاسع للميلاد كان احتكاك غرب

أوروبا بالإسلام محصوراً فى ساحة القتال إلى حد كبير ، ولم يبدأ الغرب فى الاعتماد على التراث الثرى للفكر والثقافة الإسلامية إلا بما بعد ذلك . (١)

ومن الشائع أن ننهى مسح تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى بتقارير ثابتة عن " تراث العصور الوسطى " إذ يتجشم الكتاب عناء إبراز حقيقة أن كثيراً من المؤسسات والمواقف التى ظهرت فى أوروبا العصور الوسطى مانزال معنا إلى اليوم : فالكنيسة الكاثوليكية ، والحكومة النيابية ، والجامعة ، والنزعة الرومانسية ، والعلم التجريبى ، والمؤسسات الرأسمالية وغيرها مما نعتز به من نتاج العصور الوسطى ، وإنها لحقيقة أن وجود العصور الوسطى معنا أكبر من وجود التراث القديم ، كما أن حياتنا فى النهاية محكومة فى كثير من الجوانب بتراث العصور الوسطى ، ولكن من ناحية أخرى فغن هذه المؤسسات والمثل العليا التى يمكن أن نجد أصولها فى العصور الوسطى قد تغيرت بشكل ذكى منذ القرن الثالث عشر ، وعلينا أن نعترف بالفروق الأساسية بين عالمنا وعالم توماس أكويناس وسان لويس ، ويمكن أن نجمل هذا فى القول بأنه إذا استطعنا أن نرجع القهقرى إلى القرن الثالث عش فإننا سوف نجد الناس فى العصور الوسطى يختلفون عنا بالفعل ، ولسوف تروعنا الروائح الكريهة المنبعثة من أجسادهم وعاداتهم الشرهة فى الأكل ، وافتقارهم للراحة البدنية وتدينهم المتعصب ، واعتقادهم العميق فى الخرافات ، فضلاً عن العنف والقسوة اللذين يسودان حياتهم اليومية ، وبعبارة أخرى فإن حضارة العصور الوسطى كانت فى كثير من جوانبها حضارة مجتمع ما قبل التصنيع ، وحضارة العصور الوسطى لم تحقق التطبيق الكامل للعلم على التكنولوجيا ، وهو ما جعل اقتصادنا الاستهلاكى ممكنا ، وهنا يكمن أوضح الخطوط الفاصلة بين الناس فى العصور الوسطى وبيننا ، ومع هذا فإننا أقرب إلى أهل العصور الوسطى منا إلى أية حضارة أخرى فى الماضى ، إذ أننا نستطيع أن نشارك فى تجاربهم أكثر مما نستطيع أن نفعله بالنسبة لإنسان العصور القديمة أو الشعوب الشرقية ، لقد

كانـــت العصـــور الوســـطى تجربـــة طويلـــة جـــداً وحاســـمة فـــى تطـــور الحضارة الغربية ، ومن ثم فهى جديرة تماماً بأن تكون موضوعاً للدراسة ذلك أن فهم الماضى الوسيط أمر لا غنى عنه لكن لكى نتعرف على هويتنا .

وعلى أية حال فهناك سبب آخر لدراسة تاريخ العصور الوسطى ، ذلكم هو الدرس الذى يمكن أن نتعلمه من دراسة المسار الكلى لحضارة العصور الوسطى ، قد عبر الفيلسوف سانتيانا **Santayana** عن واحدة من أكثر الحقائق عمقاً حين لاحظ أن أولئك الذين يجهلون الماضى يدينون أنفسهم بتكراره ، فماذا فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى يمكن أن نتمثله ونترسم خطاه أو نتجنبه ؟ من حسن الحظ أننا نعرف عن حضارة العصور الوسطى أكثر مما نعرف عن أية حضارة أخرى ماتت ومضت ، ونحن نستطيع بثقة فى الصفة الترجيحية لمعلوماتنا عن التغير التاريخى أن ندرس نموذج تطور أوروبا فى العصور الوسطى وأن نتعلم من هذه الدراسة دروساً تهمنا وتمنحنا الوعى ، فتاريخ العصور الوسطى يعلمنا أن الإنجازات الهائلة بمتناول مجموعة صغيرة من الصفوة التى ترشدها المثل العليا والقادرة على تحقيق هذه المثل ، أمر ممكن وأكثر ما يبعث على السرور فى هذه الدراسة يأتى ن التأمل فى الشخصيات والأعمال التى أتاها أولئك الرجال العظماء الذين قادوا أوروبا على مدى قرون عديدة من قسطنطين إلى جريجورى السابع حتى سان لويس – أولئك الرجال الذين كانت لديهم الجرأة على تحقيق أشياء عظيمة لأنهم أخذوا الرب مأخذ الجد .

وفى تاريخ العصور الوسطى كذلك درس نتعلمه عن انهيار الحضارة ، وفى تجاهلنا لهذا الدرس خطر كبير على ثقافتنا وعلى مجتمعنا ، فقد خلقت حضارة العصور الوسطى بعد صراع طال خمسة قرون على أساس توليفة معقدة وعقلانية بين الروح التى تمثلها الكنيسة والعالم الذى تمثله الملكية ، وقد راينا فى هذا الكتاب كيف أن انهيار التوازن فى القرن الحادى عشر حدث حين استهان هذا التوازن بمبادئ بعض الرجال الغيروين الدينية والأخلاقية ، ففشلت محاولتهم

لإعادة بناء لمجتمع وفقاً لمثلهم التطهرية ، وقد تمت صياغة توازن أقل كمالاً فى القرن الثالث عشر وضع فى حسبانه نتائج الإبداعية فى التعليم والتدين والسلطة ، ولكن هذا الوفاق الجديد كان قائماً على توازن دقيق وحساس بين الأطراف بحيث لم يستمر طويلاً ، وكانت النتيجة انهياراً عصيباً اجتماعياً ، وبدأ السعى إلى إشباع رغبات المستهترين المرعبين الذين انتهكوا مبادئ النظام فى العصور الوسطى .

وهكذا فإن دراسة التاريخ الوسيط تعلمنا أن الحضارة نتيجة للتداخل المركب بين الروح والسلطة ، بين الموارد الروحية والموارد المادية ، وأن هذا الوفاق الحساس يصعب الحفاظ عليه ل، الحفاظ يتطلب ذكاء ناضجاً ، واعتدالاً عاقلاً ، ويقظة مستمرة وأن أعداء الحضارة بغض النظر عن البدائيين الذين لا يفهمون هم أولئك الغلاة غير المسئولين والهازنون العصابيون . [٢]

الهوامش

(١) هلستر (س. ورن) : أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة : محمد فتحلا الشاعر ، ص ٩٧ .

(٢) كانتور (نورمان. ف) : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة وتعليق : د. قاسم عبده قاسم ، (القاهرة ، ١٩٩٧) ، جـ ٢ ، ص ص ٦٧٤ – ٦٧٦ .